زهير الجزائري

أنا و هُمْ

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

مكتبة الفكر الجديد

مذكرات

المؤلف: زهير الجزائري
عنوان الكتاب: أنا وهم
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣

جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦(١)٠٠٩٦١ - ٧٥٢٦١٧(١)٠٠٩٦١
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبونواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أو تخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أيّ نحو، أو بأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أو ميكانيكيّة، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 97828430 - 6185- 1

مكتبة الفكر الجديد

زهير الجزائري

أنـا و هُـمْ

نور العمودي
Intellectualrevolution

مكتبة الفكر الجديد
@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

ذكرى الحاضر[1]

عشت أكثر من نصف حياتي مع هذه الحزمة من المستبدِّين الذين جاءوا من الصحراء أو القرى المنسيّة وتسلّلوا صعوداً من خلال الجيش، أو القبيلة والجيش، ثم قفزوا على السلطة في لحظة غفلة من الزمن بانقلاب قصر أو بانقلاب على المنقلبين واحتلّوا المدينة المريبة لهم والمرتابة منهم.

السبعينات التي تناسل وتأبّد فيها المستبدّون شهدت الموجة العالمية الرابعة من الديمقراطيات. ففي أبريل ١٩٧٤ قامت مجموعة من صغار الضباط بانقلاب ضد الدكتاتور مارسيلو كايتانو فأسقطت حكومته خلال أيام وبدأت مسيرة البرتغال نحو الديمقراطية وتبِعها عدد من بلدان أمريكا اللاتينية وأفريقيا في الموجة الرابعة من الديمقراطيات منذ الثورة الفرنسية.

حتى هذه اللحظة كانت الدكتاتوريات العربية تستمدّ استمراريتها من المراوحة بين المعسكرين في أتون الحرب الباردة وتُعتَبر الديمقراطية نوعاً من البطر إزاء المواجهة المؤجّلة مع إسرائيل.

البيروسترويكا السوفياتية مهّدت للموجة الخامسة من الديمقراطيات.

---

(١) من عنوان ديوان للشاعر العراقي عبد الرحمن الطهمازي.

مكتبة الفكر الجديد

فأوّل مبادئ التفكير الجديد الذي حملته البيروسترويكا هي أنها استبعدت الحرب كوسيلة لحلّ الصراعات الاجتماعية، والأهمّ من كلّ ذلك أنّ البيروسترويكا ركّزت نقدها على سياسة الحزب الواحد التي تقوم على دمج الناس بالدولة عبر الحزب الواحد وجعلت من ستالين والستالينية إرثاً كريهاً.. وبذلك حرّمت أنظمة الحزب الواحد من المِثال والقدوة.

وكانت النتائج العمليّة التي تمثّلت في سقوط أنظمة الحزب الواحد في هنغاريا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا تحذيراً للتلاميذ الصغار في العالم الثالث. ولكن الخطر أصبح جديّاً بسقوط نظام شاوشسكو الأكثر شبهاً بقوميته الاشتراكية بالأنظمة العربية من ناحية اعتماده حُكم العائلة وإشاعة التأليه الإيماني للقائد. صديق كويتي أخبرني بأنّ جريدته استلمت أربع رسائل من أربع سفارات عربيّة احتجاجاً على مقال نشره في الجريدة عن نهاية شاوشسكو أنهاه بعبارة: «فليأخذ بعض الحُكّام العرب العِبرة من هذا المصير» من دون أن يسمّيهم بالإسم. رغم تحوّلات السبعينات والثمانينات بقيت دول الشرق الأوسط العربي من الخليج إلى شمال أفريقيا على مكانها دون تغيّرات تذكر. فقد نجحت الأنظمة ملكيّة أو جمهورية في احتواء الأزمات ولو بالقوّة. ساهم الاقتصاد الريعي الذي يربط مداخيل الناس، وبالتحديد الطبقة الوسطى، بالحكومة في تعطيل حركة المجتمع من أجل الإصلاح.

ومع استخدام القمع ضدّ أي تحرّك باتّجاه الإصلاح أتبعت الأنظمة المستبدّة سياسة تطمين النفس والتظاهر بأنّ ما حدث أمر خاص بالأنظمة الشيوعيّة ولا يصلح للتعميم. وقد تدخّلت الأرادوية لتعزيز الثقة المفرطة بالذات اعتماداً على (أصالة) دينيّة. وكان ردّ الفعل المتمّم هو قيام النظم التي تجد نفسها ضد التاريخ ومشروعيّة الحاضر بالبحث عن ملجأ في

مكتبة الفكر الجديد

السلفيّة الدينيّة كما هو الأمر مع نظام البشير في السودان والحملة الإيمانيّة في العراق أو التأكيد على خصوصيّة الواقع العربي باعتبارها محصّنة أرادوياً ضد تأثيرات الوضع الدولي.

في التسعينات جاوز معظم هؤلاء المستبدّين العقدين في الحكم وأوشك كلّ واحد منهم أن يتحوّل إلى قدر لا فرار منه. ما عاد المستبدّ، في وعي أجيال كاملة، صفة للحاكم. المهمّ أن يكون عادلاً أو غير عادل. (الرئيس) صارت أضعف الصِّفات لهذا المستبدّ، لأنها صفة تتّصل بالزمن، وتنطبق على شخصيّات متغيِّرة، لذلك ترسّخت ألقاب (القائد، القائد الضرورة، الرمز). ولأوّل مرّة دشّن في سوريا ترشيح الابن بدلاً من النُّواب في الحزب والدولة لخلافة الأب وأصبح قاعدة في الملكيّات الجمهورية.

وبعد سلسلة من محاولات الاغتيال شملت عدداً من المستبدّين العرب صار التحرُّك المكشوف محصوراً على المستبدّ، وكلّما زادت عزلته عن الناس وصار حبيس قصره زادت صوره وتماثيله وتناسلت في الشوارع والساحات وكتب الدراسة كأنّه يطبّق مقولة بيرانجيه في مسرحية اليونسكو (الملك يموت): «ليوضع تمثالي في جميع الميادين ولتعلّق صورتي، أنا، في جميع الوزارات، وفي مكاتب سائر أقسام الشرطة ومراقبي الضرائب والمستشفيات، وليطلق إسمي على كلّ الطائرات والبواخر والعربات والسيارات. ولتُسدل ستائر النسيان على جميع الملوك الآخرين والمحاربين والشعراء والمغنّين والفلاسفة، ولا يبقى أحد غيري في وجدان الناس جميعاً».

وتناسب هذا الانتشار الرمزي لصور وتماثيل المستبدّ مع انتشار المُخبر الفعلي والمُخبر الافتراضي في الشوارع والمؤسّسات والبيوت لتنبني الحياة الإجتماعية بين المواطنين على أساس من الشكّ والخوف من

مكتبة الفكر الجديد

الآخر. وفي هذا الخوف الشامل، وفي غياب أيّ حماية سياسيّة أو قانونية تفتّت الشعب إلى ذوات معزولة عن أيّ مسؤولية عامة إلّا من خلال الحزب القائد.

تغيّر الزمن مراراً ولم يتغّير الحكّام المستبدّين الذين حكمونا. لم تكن نهاية الحرب الباردة بداية السلام فقد دخلنا الألفية الثالثة مع ١٤٢ حرباً إقليمية وحدودية وأهليّة أكثر من نصفها في أفريقيا وثلثها في العالمين الإسلامي والعربي، وقد شهدت هذه الحروب مصرع سبعة ملايين إنسان وكلّفت ١٠,٧ تريليون دولار وتتواجد اليوم قوّات دوليّة في ١٧ منطقة ساخنة من العالم. كنت قد قاربت الخمسين في بداية التسعينات وقد امتلأت روحي بمشاهد آلاف الشبان يُقتلون في الخنادق والحُفر في جبهات الحروب من دون إرادة منهم وامتلأت بمشاهد الأمهات الثكالى ينحبن خلف نعوش الأبناء في زمان يموت فيه الأبناء قبل الآباء.

ولا واحدة من هذه الحروب بين نظامين ديمقراطيّين، إنّما كان طرفاً واحداً منها على الأقلّ نظام استبدادي. كانت الحروب في الداخل أو الخارج هي أجوبة هذه الأنظمة الاستبداية على سؤال الديمقراطية المطروح في الداخل. ومع تراكم الجثث في هذه الحروب الخاسرة كنت أرى صدور مستبدّينا تتطرّز بالأوسمة وأنواط الشجاعة. في ساحة الميدان ببغداد اشتريت بعد سقوط حكم صدام حسين حفنة من هذه الميداليات بمبلغ لا يزيد على عشرة دولارات ووزّعتها على أصدقاء لم يدخلوا أيّ حرب في حياتهم.

قبل أن تبدأ ثورات الربيع العربي استخدم النموذج العراقي لسقوط الدكتاتورية، بما حمله من انقسامات وعنف طائفي وتفكك للدولة، نموذجاً للتحذير والتصدير تعمّمه العديد من الأنظمة العربيّة على شعوبها وعبر

مكتبة الفكر الجديد

فضائياتها: هذه هي النتيجة الحتميّة لتغيير الأنظمة الحالية.. عنف الحرب الأهليّة هو البديل الوحيد لعنف الأنظمة المستبدّة الحالية.

تقادم الحكام المستبدّون في الحكم ما بين ٣٠ – ٣٥ عاماً، مقابل ذلك صار ٧٥٪ من سكان دولهم دون الثلاثين من العمر، أكثر من نصفهم بلا عمل. وكلّما تقادم الحاكمون وشاخوا صار المتملّقون يبحثون عن ألقاب أكثر دواماً من الألقاب الرسمية، وحلّ (الأب) أو(الأب القائد) محلّ الرئيس، فالرئيس لقب مؤقّت له صلة بفترة الإنتخابات التي لا تزيد عن أربع سنوات قابلة دائماً للتجديد، لكن الأب دائم ويقوم على علاقة الحاكم بالرعية، الأب هو الذي يفكّر نيابة عن الأبناء الذين لن يبلغوا أبداً سن النضج الذي يؤهّلهم لتقرير مصائرهم، الأب يفكّر لهم ويفكّر عنهم، وهو الذي يصنع مصائرهم ويربّيهم بمزيج من الحنان والقسوة إذا ما تجرّأوا على التمرّد. وعلى الأبناء أن يقبلوا هذه القسوة ويتقبّلوها عن غصب لأنّها قسوة الأب الذي يريد مصالحهم. يستطيع المواطنون أن يغيّروا رئيسهم بالانتخاب أو بالانقلاب، لكن الأبناء لن يستطيعوا تغيير والدهم القدر. الأب يحذّر الأبناء المتظاهرين من المندسّين الذين يريدون تفريق العائلة الواحدة، ولا تكتمل وحدة العائلة إلّا بوجود الأب على القمّة.

يمرّ الزمن، يمرّ بسرعة ولا تتغيّر الحياة في حين يُتابع الناس من خلال أكثر من ٢٠٠ فضائية سرعة التغيّرات في العالم. انحسرت السلطات في معظم البلدان العربيّة (العراق، سوريا، مصر، اليمن كأمثلة) من سلطة الحزب الواحد إلى سلطة العائلة في الحزب وفوقه، وهُمِّشت كلّ القوى الأخرى ومنها الحزب الحاكم نفسه في هذه الملكيّات الجمهورية. اتّسعت الفجوة بين الفقر الأدنى والغنى الفاحش فصارت العائلة الحاكمة نفسها فاسدة ومفسدة.. تراكمت الأسباب واحتاج الغضب والقهر إلى شرارة، هذه

مكتبة الفكر الجديد

الشرارة بدأت بمشهد رمزي حين أحرق الشاب التونسي محمد البوعزيزي نفسه فبدأت المظاهرات في تونس ونجحت في الإطاحة بالرئيس زين العابدين بن علي، ثم انتقلت بسرعة البثّ إلى ١٦ بلد عربي، من الشمال الأفريقي إلى الخليج في أعظم تظاهرة تضامن شعبي عربي وسقطت أربعة أنظمة في تونس ،ليبيا، مصر واليمن. وشهدت المغرب والكويت والبحرين والأردن وسلطنة عمان تغيّرات حكوميّة وقانونيّة استباقاً للعاصفة. كنت أتابع النهاية الدمويّة للقذافي وهو يسحل بوجه دام متوسّلاً قاتليه أن يُبقوا على حياته وأرى كيف يعدي المستبد ضحاياه وأتأسف لانكسار المصير الذي أعددته لهم في خيالي: أن نضعهم أحياء ببدلاتهم العسكرية الكاملة ونياشينهم على صدورهم في مسّلات زجاجية كتبت عليها إنجازاتهم من حروب وسجون وأسماء ضحاياهم.. نضعهم في المتاحف الوطنيّة ليتوقّف أمامهم طلّاب المدارس ويعرفوا ما فعلوه وما عانيناه منهم، نحفظهم في مواجهة الزمن لأنّ الشعب الذي ينسى محكوم بالتكرار.

مكتبة الفكر الجديد

حسني مبارك: جمود الزمن!

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

علاقتي بالرئيس حسني مبارك قديمة، تمتدّ إلى ما قبل تسلُّمه الرئاسة. تعرّفت عليه للمرّة الأولى وهو على منصّة الرئاسة حين انطلقت تلك الرصاصات التي أودت بحياة السادات. تنحّت الكاميرا عنه أم تنحّى هو عن الرصاصات، لا أدري، لكنّني شغلت به وهو ينهض من بين ركام الكراسي فزعاً من هول ما حدث، يتلمّس صدره غير مصدّق أنّه نجا من المقتلة... بعد أن تأكّد من عودة الحياة إليه سأل بصوت عال «فين الريِّس؟» سأل من دون أن يسمع جواباً، فقد غادر الحرس رئيسهم حين أطلق خالد الإسلامبولي رشقة الرصاص على منتصف المنصّة مستهدفاً الرئيس تاركاً نائبه. كانت لحظات الموت هذه بداية علاقتي مع مبارك.

طوال الثمانينات كنت موزّعاً بين مبارك وبين صدّام رغم شدّة الخلافات بينهما، ففي مجّلة (الحرية) التي كنت أكتب فيها مقالاً أسبوعياً كلّفوني بملفّي مصر والسودان. بين أسبوع وآخر كان عليّ أن أبحث عن مدخل ما للكتابة عن مصر وعن مبارك بالذات، وكنت أتردّد كثيراً في وصفه بـ«دكتاتور» لأنّ هذا اللقب كما اعتقدت كان احتكاراً بجدارة لدكتاتورنا، وكنت أجادل صديقي المصري الذي يريد استعارة لقب الدكتاتور منّا بأنّ صُحفاً للمعارضة تصدر علنيّاً في مصر ويكفي أن تستخدم في مانشيتاتها عبارة (الحزب الحاكم) بدلاً من (الحزب القائد). كتبت الكثير عن مبارك

مكتبة الفكر الجديد

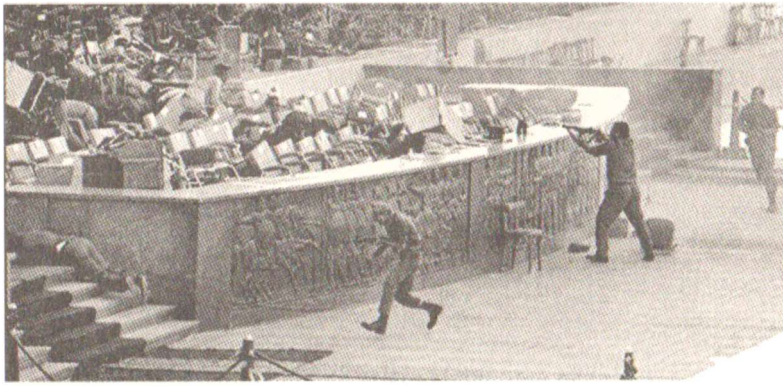

وعن برنامجه في تحجيم المعارضة وحصرها في مقرّاتها أو على سلالم نقابة الصحفيّين، ولكن كلّ ما كتبته عنه لا يقارن بما كتبته عن دكتاتورنا العراقي، فقد صرفت على الثاني ١٨٠٠ صفحة فولسكاب في ثلاثة كتب استغرقت ١١ عاماً من حياتي.

صدّام كان جزءاً ثابتاً من كوابيسي، فلطالما حلمت وأنا في المنفى بنفسي متورّطاً بوجودي في العراق تحت جنح الظلام خائفاً من أن يحلّ ضوء الصباح وأنكشف له أو لمخابراته مع صفحاتي التي كتبتها عنه. أمّا مبارك، فقد حلمت به مرّة واحدة في القاهرة.. يدقّ بابنا مطالباً بإيجار الشقّة التي سكنت فيها، وبينما كنت أعدّ الجنيهات، سألني بمزاح خبيث عن مقالات كتبتها عنه في المجلّة التي حملها إليّ: ماذا تقصد بهذا المقال؟

إيقاف الزمن

خلال الأشهر السبعة التي قضيتها في مصر العام ٢٠٠٧ تعمّقت علاقتي بمبارك. صرت أراه ما لا يقلّ عن خمسين مرّة كل يوم: في الشوارع، في الساحات العامة، في واجهات الصحف وأغلفة المجلّات، في مداخل

مكتبة الفكر الجديد

الدوائر وداخل القاعات وطبعاً في القنوات المصرية.

الزمن كان هاجس مبارك وهو يقارب عقده الثامن ويقود البلد السادس عشر عالمياً من حيث عدد السكان. الرئيس الهرِم البطيء الخطوات كان يقارن عمره بشباب مصر وصغارها، ففي هذا البلد الذي يحكمه الشيوخ يشكّل الشبان بين ١٥– ٢٥ ما يقارب ثلث السكان، يتزايدون بنسبة ٢٤،٢٧٪ في كل تعداد عشري. الأرقام التقديرية حذّرته من أنّ الشعب المبتلى به سيضاف له نحو ٢٣ مليون شاب وصبي حين يدخل عقده التاسع، يا لهول الفرق بين شباب البلد وهرم حاكمه!

تحايلاً على الزمن وعلى نفسه حرص مبارك، مثل دكتاتوريّين عاصروه، على أن يصبغ شعره. وبالنسبة لي، وأعتذر مقدّماً للأصدقاء الذين يصبغون شعرهم، فأنا لا أجد فارقاً كبيراً بين من يزوّر شهادته ومن يصبغ شعره من الرجال. الأوّل يزوّر شهادته من باب الوجاهة لا العلم، والثاني يزوّر عمره، وهو في الحقيقة لا يخدع غير نفسه، فمن المستحيل تكذيب الزمن وخطوطه على الوجه.

بين شَعر مصبوغ لا خيط من الشيب فيه وبين وَجه غزته التجاعيد حرص الرئيس مبارك أن يثبت هذه الكذبة في وعي ناسه باستخدام صورة تعود إلى ما قبل عشر سنوات: ما زال الرئيس الذي لم يره الناس منذ مدّة على شبابه القديم!

مكتبة الفكر الجديد

في آخر أيامه لم يعد يسمع محدّثيه فيميل برأسه إليهم وأحياناً يضع كفّه ليلتقط الكلمات وهي تصله واهنة كأنّها تأتيه من قعر بئر. لا يسمع ولا يريد أن يسمع قضايا الفساد الذي اخترق كلّ أجهزة الدولة وعائلته بالتحديد. لكن هذا الرجل الذي يسمع بالكاد إمتلك واحدة من أكبر منظومات التنصّت في العالم العربي. وقد حذّرني صديق يساري مصري من أنّ «للجدران هنا آذان». حيث توجد ست غرف مراقبة بأجهزة حديثة. ثلاث فى الداخلية وثلاث خارج الداخلية. وفي الداخلية غرفة لمباحث أمن الدولة، وغرفة للأمن العام تخرج منها أذونات النيابة بالتنصّت. وفي عهدة مباحث أمن الدولة غرفة تنصّت مغلقة لمباحث القاهرة. وكان هناك صراع خفي في السنوات الأخيرة بين الداخلية والمباحث. وفي غياب مدير المباحث حبيب العادلي خارج البلاد إقتحمت مجموعة من ضباط الداخلية غرفة التنصّت المغلقة، فاكتشفوا، ويا للهول،أنّ جميع هواتفهم «مركوبة» على التنصت. وأدركوا أن حبيب العادلي يعرف عنهم كلّ شئ، بما في ذلك أسرار الأملاك والصفقات والجولات الليليّة للوزير ومن يصاحبه فيها، ولذلك صار التخلّص من حبيب العادلي واجباً. يقرّب الرئيس أذنه اليمنى

مكتبة الفكر الجديد

من الواشين وهو يعرف بصراع الأجهزة وتنافس الواشين ببعضهم. يسمع ويهزّ رأسه موافقاً، ولا يوقف الصراع ما دامت الحصيلة تتّجه لإرضائه.

صَمَمٌ طبيعي وصَمَمٌ عن قصد ترادفا معاً على دكتاتور لم يعد يسمع شيئاً عما يدور حوله، لم يعد يسمع تحذيرات ناصحيه ومحذّريه، لم يعد يسمع صوت معارضيه، لم يعد يسمع هدير الشباب في ساحة التحرير، ولذلك أعلن في الخطاب العجيب قبل استقالته بأنّه فخور بشباب مصر في ساحة التحرير كأنّه لا يسمع، عن عمد، بأنّهم يصرخون: إرحل!

هذا الرجل الذي بدأ حياته طياراً يرى الآفاق أمامه مفتوحة حتى نهاياتها ويرى الأرض على اتّساعها تحته صار الحبيس قصره وما عاد يرى من وراء الجدران غير الغشاوة التي تحيط ببصره وبصيرته. لم يعد يرى تفكّك الدولة التي يحكمها وتقلّص دور المؤسّسات. صارت مصر تُدار على المزاج بشكل سلسلة تكايا وصفها صحفي مصري «تكّية مركزية، حولها تكايا صغيرة فى كل موقع». ويتوزّع الدخل العام بين تكايا الحكم وتكايا القطط السِّمان بحيث إنّ ٢٪ من المصريّين يتحكّمون بـ٤٠٪ من جملة الدَّخل

مكتبة الفكر الجديد

القومي بينما يعيش ١١ مليون مصري في ٩٦١ منطقة عشوائية وأوسعها المقابر.

خطواته العسكريّة تباطأت وقد دخل العقد الثامن فما عاد قادراً على ملاحقة خطوات الآخرين. في لقاء عُقد في القصر الأبيض جمع الرئيس الأمريكي أوباما والملك الأردني عبد الله والرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو بدا حسني مبارك معزولاً في نهاية الركب وعلى مسافة خطوات خلف نتنياهو. جريدة الأهرام الرسمية اضطرت لإجراء عمليّة جراحية على الصورة لتقلب المشهد فتضع الرئيس العجوز في المقدّمة ويسير الآخرون خلفه.

التلفزيون فضحه مرّتين أمامي، فقد لاحظت الصعوبة التي ينهض بها من كرسيه. الكرسي يجرّه إليه بإصرار: إبق حيث أنت!

نوستالجيـــا

كنت أرى مصر تتقادم من دون تجديد كلّما تقادم رئيسها.. تتقادم الصحف والأفكار ومظاهر الحياة، كأنّ أبواب التجديد قد أُغلقت بيد رئيس الجمهورية الرابع والذي تمتّع بأطول فترة حكم في المنطقة العربيّة بين الملوك والرؤساء الذين بقوا على قيد الحياة، وكان الأطول حكماً بين ملوك ورؤساء مصر منذ محمد علي باشا. « ما من بديل»، كنت أسمع باستمرار. أما الاستمرار مع هذه النهاية الباهتة لسلالة الضباط الأحرار أو الثيوقراطية الخانقة لحكم الإخوان المسلمين. بعد الهدنة الطويلة مع إسرائيل استخدم مبارك الهلع من عنف الأخوان المسلمين كذريعة للتهرّب من مطالبة

مكتبة الفكر الجديد

الطبقة الوسطى ونقاباتها الحرفية (المحامين، الصحفيين المهندسين) بتوسيع المشاركة في الحكم.

المثقّفون المصريّون الذين التقيتهم خلال الأشهر السبعة «لا تنس أنّ الهرم هو كيان حاضر بجانب كونه أثر تاريخي.. تكسّر قمته ينعكس على قاعدته». كنت أتلمّس شعوراً عميقاً بالخيبة بين المثقفين المصريين الذين يحفظون تاريخهم عن ظهر قلب ويستعيدون أمامي بنوستالجيا حزينة فترات كانت مصر فيها تكتب ولبنان ينشر والعراق يقرأ، يقارنون ذلك بالأيام الحالية حيث يُصدر البلد ذو الستين مليوناً ٣٧٥ كتاباً فقط خلال العام مقابل ٤٠٠٠ عنوان كتاب جديد يصدر في إسرائيل التي يقلّ سكّانها اليهود عن الخمسة ملايين. كنت أسأل أصدقائي المصرّيين ليرشدوني إلى كتب وتحليلات عن الوضع السياسي والثقافي فأسمع الجواب نفسه تقريباً «لا تبحث، هناك تراجع خطير في النّتاج الثقافي». ما زال فكر الهزيمة الذي كوّنَني يحكم الأحزاب المصرية، تغذيه غطرسة إسرائيل التي تملك سفارة في قلب القاهرة. وقد أوقدت الحرب القصيرة التي خاضها حزب الله مع إسرائيل نوعاً من الانتعاش بين الجيل الذي عاش الهزيمة فخرجت التظاهرات تهتف «يا نصر الله يا حبيب، إضرب إضرب تل أبيب!». كانت صواريخ حزب الله كما هي صواريخ صدّام نوعاً من كسر الركود الطويل الذي عاشته مصر وإعادة كرامة أهدرتها دولة عسكريّة متغطرسة. وأمام المتظاهرين المتحمّسين رأيت المفكّر اللبناني (علي حرب)،الذي جاء القاهرة ليحصل على جائزة تكريم وقطعته الحرب عن العودة، يقف أمام المتظاهرين ويهتف بغضب «ماذا تفعلون؟ أنتم تهتفون لخراب لبنان!» لكن لا أحد يسمعه في جوّ الحماس.

بين محمد علي ومبارك عاشت مصر الحديثة تحت حكم سلالتين،

مكتبة الفكر الجديد

سلالة محمد علي ذات الأصول الألبانية التي انتهت بالملك فاروق، و(سلالة) الضُبّاط الأحرار التي بدأت العام ١٩٥٢ بحكم محمد نجيب وعبد الناصر وانتهت بحسني مبارك والمجلس العسكري الذي تلاه.

زرت مصر مرّات عدّة في عهدي عبد الناصر وأنور السادات، ثم رأيتها بعد أكثر من عقدين في عهد حسني مبارك. لم تكن لمبارك لمسته الخاصة على مصر كما عبد الناصر والسادات على التعارض بينهما. قاد عبد الناصر حركة تحرير بدأت بمصر وعمّت العالم العربي وخاض حربين خاسرتين مع إسرائيل إنتهت الثانية باستقالته فأعادته مظاهرات حاشدة للرئاسة. داخلياً كان يمثّل لشعبه نوعاً من المستبدّ العادل. حقّا أنّه منع الأحزاب والنقابات ووضع كل منظّمات المجتمع المدني تحت السيطرة المطلقة، لكنّه قدّم بالمقابل نوعاً من الحماية للطبقات الدنيا والمتوسّطة بتوفير العمل والسكن والحماية الصحيّة والتعليم.

فتح السادات على عكس عبد الناصر بعض المجال لأحزاب خارج السلطة واتّبع سياسة (انفتاح) إقتصادي داخلي نمت خلالها القِطط السمان، وخارجيّاً فتح السادات باب السلام واستعاد بالمفاوضات ما خسره عبد الناصر في حرب حزيران ١٩٦٧ وفتح باب المفاوضات الذي دخله معظم العرب بعده، بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينيّة، لكنّه أخذ مصر بعيداً عن همومها العربيّة بمصالحة اسرائيل ووضع مفاتيح الحلّ بيد أمريكا.

أمام الإثنين لم يمتلك مبارك مغامرة ناصر ولا مغامرة السادات، كان ظلاً باهتاً بإيقاع بطيء. وقد عرفت من ابنه سرّ هذا البطء، فقد أحال الأمر إلى أنّ والده طيّار، تعوّد أن يفحص الطائرة قطعة قطعة، قبل أن يقلع بها. كذلك يفعل في السياسة من دون أن يقلع.

مكتبة الفكر الجديد

الاغتيـــال

الاغتيال كان هاجسه الثاني بعد الزمن. فقد رأى لمرّات قاتله وهو يتّجه إليه.. رأى خالد الإسلامبولي يخرج من جوف المدرّعة التي ممرّ أمام منصّة التحيّة وهو يطلق النار من رشاشه، ورأى قاتله (مصطفى حمزه) ثانية في أديس أبابا العام ١٩٩٥ على بعد خطوات منه متسلّلاً من بين حرّاسه مطلقاً النار على سيارته بالتحديد من مسافة أمتار قليلة. في بور سعيد كان القاتل أقرب إلى وريده. كان مبارك قد فتح زجاج السيارة الأمامي في لحظة نادرة ليحيي الواقفين على جانب الطريق. لم يكن يعرف أن بين المحيّين شخص يخفي السكين تحت كمّه. دخل القاتل هذه المرّة حتى منتصف جسمه داخل السيارة مزمعاً على أن يذبح الرئيس، لكنّه أفلت اللوزة فغارت السكين بين ضلوع الرئيس حتى أوقفها حارسه الشخصي. بعدها لم يفتح الرئيس نافذته و لم يحي أحداً من الواقفين على جانبي طريقه. صارت سيارته المدرعّة المعتمة النوافذ ممرّ بسرعة الشبح.

في هذه الفترة التقيت مبارك للمرّة الأولى في كورنيش الإسكندرية المطلّ على البحر المتوسّط. وكان زجاج سيّارته معتماً بحيث يرى الناس من دون أن يروه. لي ولصّياد سمك بجانبي كان مجرّد افتراض، فالصورة في كلّ مكان أدل على حضوره الدائم. عجبت من السرعة التي مرّ فيها واختفى في لحظة كأنّها الوهم. لقد علّمته محاولات الاغتيال أسلوب التحرّك على الأرض بسرعة لا تترك للقاتل المفترض في كلّ زاوية مجالاً للملمة فكرة عنه. لم يكن السادات قبله يمسّ الأرض، إنما يتحرّك بالهليكوبتر، ولذلك يرى المدينة من تحته نظيفة شديدة الاستقامة هادئة على عكس حقيقتها. مبارك ومن سيّارته الخاطفة ومن وراء زجاجها المظلّل كان يرى المدينة كأنّها مجرّد ذكرى وهي تنسحب إلى الخلف.

مكتبة الفكر الجديد

صياد السمك انحنى عليّ ليخبرني بأنّ الرئيس ذاهب إلى بيته في الإسكندرية حيث يقضي معظم الوقت أمام البحر معزولاً عن الناس. البحر يعطيه إحساساً بالأبدية والعزلة بعيداً عن هموم الجيّاع وتراكم الديون ومشاغبات المعارضة. العزلة كانت وسيلته للهرب والهدوء، عزل نفسه عن ناسه وعزل مصر عن محيطها العربي. السادات بدأ الخطوة الأولى في عزل مصر برحلته المفاجئة إلى تل أبيب. لكن هذه العزلة تكرّست كليّاً في عهد مبارك فأخذت دول النفط محلّ مصر كوسيط في النزاعات العربيّة. دولة صغيرة مثل قطر لا تزيد مساحتها عن مساحة محلة في القاهرة ولا يزيد سكانها عن سكان قرية في الصعيد صارت أكثر فاعليّة عربيّة من مصر.

لم تعرف ابنتي أوس التي تزور مصر للمرّة الأولى هذا الرجل الذي تلاحقها صوره أينما ذهبت. أشارت لصورته وسط الساحة المقابلة لجامع الحسين:

– هل هذا هو رئيس مصر؟

– نعم هو.

– إذا التقيته قل له أن ينظّف قلب المدينة ويغّير الجنيهات العتيقة ويهتمّ بالقطط في الشوارع.

العاشر بين الأسوأ

في عقده الثامن إحتلّ مبارك المرتبة العشرين بين أسوأ الحكام في العالم، حسب تصنيف مجلة باردي الأمريكية العام ٢٠٠٩، ثم (صعد) العام

مكتبة الفكر الجديد

٢٠١٠ إلى المركز الخامس عشر في قائمة فورين بوليسي (أسوأ السّيئين) بصفته «حاكم مطلق مستبدّ يعاني داء العظمة وشغله الشاغل الوحيد أن يستمر في منصبه، يشك حتى في ظلّه وهو يحكم البلاد منذ ٣٠ عاماً بقانون الطوارئ لإخماد أي نشاط للمعارضة».. بعد فوزه المحتّم بالرئاسة لخمس مرات متتالية في الأعوام ١٩٨٧ و١٩٩٣ و١٩٩٩ و٢٠٠٥ رأى المصريون رئيسهم يوشك أن يسقط ثانية حين ينهض من كرسيه فطالبوا بتعديل الدستور ليسمح بتعدّد المرشحين لرئاسة الجمهورية وأن يصبح بالإنتخاب المباشر عوضاً عن الاستفتاء. لكن الرئاسة صارت قدر الرئيس العربي الأطول حكماً. على عكس سابقيه لم يعيّن مبارك نائباً له. عبد الناصر عيّن السادات خلفاً وعيّن السادات مبارك في السلسلة التراتبية للضباط الأحرار. أمّا مبارك فلم يعيّن نائباً، فقد جهّز ابنه جمال لهذا المنصب مدشّناً نظام الجمهوريات الملكية في العالم العربي. لا عجب إذاً أنّ ٢٣٪ فقط من المصريّين أدلوا بأصواتهم في الإنتخابات الرئاسية الأخيرة العام ٢٠٠٥ لأنّهم يدركون النتيجة مسبقاً.

داخلاً إلى نقابة الصحفيّين المصريين أو خارجاً منها طوال العام ٢٠٠٧ كنت أشاهد على سلالم النقابة متظاهرين يبدأون بواحد أو اثنين، أوّلهم إبن الروائي المصري إحسان عبد القدوس. يتزايدون ببطء ولكن بإصرار دون أن يزيد عددهم عن المائة في هذا الحيّز الضيّق الوحيد المُتاح

مكتبة الفكر الجديد

للتظاهر. مع ذلك يحاطون بأضعاف أعدادهم بسلاسل أحزمة من رجال الأمن المركزي بملابسهم السود ودروعهم الزجاجيّة وخوذهم الحديدية وهراواتهم، وخلفهم المدرّعات وناقلات الجنود ومدافع الماء على أهبّة الاستعداد. عدد المعتقلين في السجون وصل إلى ما يقارب الثمانية عشر ألف معتقل إداري، بينما وصل عدد العاملين في أجهزة الأمن المصرية ١,٧ مليون ضابط وجندي ومخبر، أي ما مقداره عسكرياً واحداً لكل ٣٧ مواطن مصري. كنت أتردّد وآخذ استدارة لأخترق دروعهم الزجاجية حتى أصعد سلالم نقابة الصحفيّين. رغم وقوفهم على استعداد لتنفيذ الأوامر، لكنّي لم ألمس وأنا أنظر إلى وجوههم رغبة في الصدام، بل إني رأيت واحداً منهم ينحّي درعه جانباً ليعيد لأحد المتظاهرين لافتة سقطت منه. على كثرة عددهم كانت الأجهزة الأمنيّة قد دُرّبت وهُيّئت لمجابهة المظاهرات الصغيرة هذه وفي مكان محدّد هو سلالم النقابة، ولذلك بدت عاجزة أمام المظاهرات التي تفجّرت من دون سابق إنذار في ساحة التحرير في ٢٥ يناير ٢٠١١ وبلغت أوجّها في يوم الثلاثاء ١ فبراير حيث قُدّر عدد المشاركين فيها بثمانية ملايين شخص في أنحاء مصر. مع ذلك بقي مبارك يعتبر معارضيه (قلّة) وبأنّهم ضد مصر لمجرّد أنّهم ضدّه، وواجه هذه التظاهرات بكلّ أدوات العنف المتوفّرة، من الهليكوبترات والمدرّعات ومدافع الماء حتى الخيول والجِمال. وحين خابت رهاناته على انقسام الشعب والجيش بين (مع) أو(ضد) بدأ التراجع بسحب قوّات الشرطة والأمن المركزي من الشوارع المصرية. في اليوم الرابع (الجمعة ٢٨ كانون الثاني/يناير) تمّ إنزال قوات الجيش إلى داخل المدن وأعلنت قيادة الجيش أنّها لن تتعرّض للمتظاهرين. ألقى مبارك خطبتين خلال الأحداث، أعلن في الأولى عن مجموعة من القرارات وصفها بإصلاحات، وقال في الثانية إنّه لن يرشّح نفسه لفترة رئاسيّة جديدة في الإنتخابات التالية، مؤكّداً على أنّه لن يتنحّى، بدأت بعدها مباشرة

مكتبة الفكر الجديد

مظاهرات تهتف بشعارات مؤيّدة لمبارك واشتبكت مع المعتصمين المطالبين بإسقاط حكم مبارك في عدّة مناطق أهمّها ميدان التحرير في وسط القاهرة دون تدخُّل الجيش.

الرحيـــل

دهشت لرحيل مبارك، فليس من عادة الرؤساء (الآباء) أن يرحلوا في زماننا هذا، يرحل الأبناء إلى الحروب وبسببها، يرحل الرفاق أو يُرحّلوا، ترحل المعارضة والمعارضة المفترضة، يرحل الشعب ويبقى الطغاة على عكس قصيدة الجواهري. مع ذلك رحل مبارك إلى البحر الذي أحبّه وهرب إليه. البحر يعيده إلى نفسه بعيداً عن مرايا القصر وصوره في كلّ مكان، بعيداً عن الهاتفين له أو عليه.

تابعت حسني مبارك يوم المقتلة في السادس من أكتوبر ١٩٨١ وهو في المنصّة ببدلة الماريشاليّة جالساً على يمين السادات وعلى مبعُدة إنشات منه. رأيت على وجهه لحظة ذهول بينما ممرّ القطعات تباعاً لتمجّد اليوم الذي كان أحد أبطاله في حرب تشرين ١٩٧٣. أسَرَتني لحظة ذهول على وجهه بينما كان السادات يتابع بالمنظار المقرّب الطائرات وهي تلوّن سماء القاهرة بخطوط النصر. لم يكن مبتهجاً بما رآه في لحظات الذهول، كأنّه يحسب اللحظات المتبقيّة للحدث الذي سينهي حياة السادات ويرفعه إلى السلطة رئيساً لمصر للثلاثين عاماً القادمة. وتابعت مبارك في أيامه الأخيرة بين السجن والمحاكمة. لم أتمنّ له نفس المصير القاسي لرفاقه الدكتاتوريّين الآخرين، صدّام حسين ومعمّر القذافي، إنما أردت له موتاً طبيعياً كما أراد هو.

مكتبة الفكر الجديد

بين السجن والمحكمة تدهورت صحّة مبارك بعد أن فارق كرسي الحكم. فكما هو الأمر مع كلّ مَنْ أدمن السلطة ارتبطت صحّته بوجوده في قمّة السلطة (مؤمناً) في آخر أيامه بأنّ قدره وقدر مصر مرتبطان معاً بإرادة الله الذي اختاره وسلالته كما اختار توت عنخ آمون. متخشّباً حجري الوجه، جامعاً بين الهذيان وجنون العظمة، بسَمَع ثقيل ونَظَر قصير وخطوات بطيئة، لكنّه يستطيع الجلوس على كرسي وحوله رجال يحوّلون كلماته إلى أفعال. صحته تدهورت حالما غادر السلطة. فقد جاء إلى قاعة المحكمة على محفّة وأُدخل قفص الاتّهام ممدّداً على قفاه غير قادر على الجلوس كمن يهيّئ جسده لنومة القبر. يسمع الدفاع والشهود وهم يردّدون الاتّهامات وهي تتوالى: بدءاً من خرق القوانين، مروراً بالفساد، صفقة الغاز مع إسرائيل وانتهاءً بالقتل الجماعي.. يسمع الاتّهامات كأنّها أصداء بعيدة عن رجل آخر كان حاكماً في موقع القرار. يدخل السجين حالات إغماء متتالية لا يسمع خلالها سوى وشوشة الأمواج وهي تضرب سواحل الإسكندريّة ومعها تضطرب ضربات القلب «ستغادر عمّا قريب»..

هذه وشوشات العالم الآخر. ستموت كما عرفت وتدفن في تربة مصر وسيذكرك التاريخ ببضع جمل كسولة وعابرة: حكم ٣٠ عاماً عاشت مصر خلالها حالة طوارئ مستمرّة، وفساد مستشري وغربة عن الشباب، وارتكب في أواخر أيامه مجازر جماعية ومات في الرابعة والثمانين في السجن الذي سجن فيه مصر.

مكتبة الفكر الجديد

القذّافي: ملك الملوك!

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

أبحث عنه وأنا أتنقّل بين سريري ومنضدتي: أين تراه الآن، في أي متاهة من هذه الصحراء المترامية الممتدّة من طرابلس إلى سرت؟ أكيد أكيد، أجيب نفسي، عاد إلى متاهة الرمل الوعرة التي جاء منها ليغزو المدينة.

من الطائرة تبدو الصحراء التي وُلد فيها القذافي العام ١٩٤٢ كأنّها البداهة، وما المدينة التي تتوسّطها إلّا صدفة. وتبدو خيام البدو تائهة في متاهة الصحراء، ولا يخضع ناسها لأي قانون مديني.

إلى واحدة من هذه الخيام في قرية إسمها جهنّم بالقرب من (شعيب الكراعية) في وادي جارف بمنطقة سرت كان القذافي يأخذ ضيوفه، أحياناً دون رغبة منهم، ليريهم زهد حياته، لكنّهم بدلاً من ذلك يرون سرّ سلوكه المتقلّب العجيب وكيف طبعت الصحراء نفسها عميقاً في سلوك هذا الرجل وأوهامه عن نفسه.

أبحث عنه في هذه الصحراء التي يريد أن يستنهض أهلها ليحملوا السلاح ويعيدوه إلى سلطة مستحيلة لن تتكرّر إلّا كمأساة ومهزلة معاً. أفكّر فيه وأنا أضع في مخيّلتي رواية عن دكتاتور هارب يستعيد خلال لحظات هروبه تاريخ سلطته منذ البداية.

مكتبة الفكر الجديد

جاء إلى السلطة في ليبيا العام ١٩٦٩ ضمن سلسلة انقلابات عسكرية شهدها العالم العربي في النصف الثاني من القرن الماضي بدأت بانقلاب الضُبّاط الأحرار في مصر وشملت سوريا والعراق واليمن والسودان، ثم زادت وتيرتها بعد هزيمة حزيران العام ١٩٦٧. أغلب الضباط الذين قادوا هذه الانقلابات جاءوا من مناطق صحراوية أو قرى زراعية نائية فبدت لهم المدن مُفسِدَة ومليئة بالغرباء والمشبوهين، لذلك كانت معاركهم القوميّة ضد (الاستعمار)، ولكن قبل ذلك ضدّ كلّ ما هو ثابت ومحافظ وتقليدي في المدن: مؤسسات الدولة التقليدية، البرلمان، والطبقات السائدة، والقوميّات الأخرى، التجمّعات التقليدية.. التنوّع المديني عَنَى لهم التنافر والتشتّت، لذلك أرادوا أن يفرضوا على المدن تماثلاً قسرياً عبر تنظيم أو حزب واحد باسم النقاء القومي والديني. وكان التماثل الصحراوي أمام عين القذافي وهو يسعى لتطبيق اشتراكيّة قوميّة إسلاميّة.

رأيت القذافي العام ١٩٧٤ لأوّل مرّة، وجهاً لوجه في الذكرى الخامسة لـ(ثورة الفاتح). ذهبت إلى ليبيا كموفد صحفي لجريدة (طريق الشعب) العراقيّة. كان ما يزال يحتفظ بنضارة الشباب وهو يكبرني بعام واحد. شديد الاعتداد ببدلته العسكرية التي تذكّره بزهد عبد الناصر الشاب. يتحرّك بين ضيوفه ويصافحهم مع انحناءة بسيطة وهو على عجل يفكّر بالفعل التالي أكثر من ملل البروتوكول الحالي. بين كلّ الضيوف الذين صافحهم توقّف طويلاً مع الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش في مصافحة حارّة وحديث طويل ميّزه عن بقية الضيوف لأنّه الملهم الفكريّ لشبابه.

مكتبة الفكر الجديد

وأنا أتابع غرابة سلوكه أعترف أنّني أعجبت آنذاك بهذا القائد الكاريزمي الشاب ورأيت فيه سمات سرياليّة تكسر رتابة القادة التقليديّين. حيويته وسرعة تنقّله بدت لي نقيضاً لسلوك الباعة اللّيبيين الكسولين الذين يتثاءبون طوال اليوم في الزوايا القَصيّة شبه المعتمة من دكاكينهم العتيقة. لا يغادرون مقاعدهم لاستقبال الزبون، بل يطالبون الزبون بإنزال البضاعة بنفسه من رفوفها العالية. الكسل جزء من طِباع المجتمعات غير المنتجة التي تعتمد على عائدات النفط، فعائدات البلد لا تأتي من جهود عامليه، إنما من عمل شركات أجنبية وخبراء أجانب وتكنولوجيا أجنبية، وما على الحاكم إلا أن يقوم بجباية الضرائب من الشركات الأجنبية بدلاً من مواطنية المنتجين. أعجبت بنشاط هذا الضابط الشاب الوسيم الحليق الشاربين في مجتمع يفترض أن يكون الكسل فيه مرتبطاً بالكبرياء.

بعد يوم من مسيرة دامت حتى منتصف الليل صعدت إلى غرفتي المطلّة على البحر وأخرجت زجاجة الويسكي المخبّأة تحت سريري ، فتحتها وأنا أتفحّص موقع الكاميرات في الغرفة.كنت أختلس رشفاتي وأنا أتابع ندوة تلفزيونية شارك فيها كلّ أعضاء مجلس قيادة الثورة عن الوقائع التفصيليّة لثورة الفاتح. القذافي كان أقلّهم حديثاً، فقد ترك للآخرين أن يتحدّثوا عنه. كان يتابعهم من دون أن ينظر إليهم، إنّما إلى نقطة غامضة فوق مستوى الوقائع ويبتسم بنوع من الثقة والإحساس بخفّة اللحظة كأنّ كل ما حدث هو سلسلة من المفارقات السعيدة.

ضحكت وحدي مرّات وأنا أتخيّل الخويلدي الحميدي مع مدرّعاته العسكريّة يدور في شوارع طرابلس وقد فقد الطريق إلى الإذاعة التي سيحتلّها في ساعة الصفر، وحين لم يجد الإذاعة استدار مع دباباته ليحتل قصر وليّ العهد. وضحكت ثانية لأنّ القذافي دخل الإذاعة واكتشف بعد احتلالها

مكتبة الفكر الجديد

بأنّه لم يحضّر بياناً لإذاعته. ضحكت وضحك معي القذافي حين روى أبو بكر يونس كيف جنّدوا معهم ضباطاً لا علم لهم بالثورة، بل أخذوهم من نواديهم الليليّة، وبعضهم يترنّح من السكر، بمسدساتهم البسيطة لاحتلال الثكنات العسكرية التي نام حرّاسها ليلة الانقلاب... بعد سنوات نقلت جزءاً من مفارقات الانقلاب الليبي إلى روايتي (حافّة القيامة). مفارقات الانقلاب زادت من إعجابي بهذه الصراحة الفجّة، غير البطوليّة التي تحدّث بها قادة الانقلاب الذين أطاحوا بحكم العائلة السنوسية.

لم يقتصر هذا الإعجاب عليّ وحدي، فقد اعترف الكاتب اللبناني اللامع (ميشال أبوجوده) في أحد أعمدته في (النهار) بأنّ المتابعة السياسية تبدو له مملّة لولا مفاجآت قادة مثل القذافي يقلبون الموازين الثابتة للعمل السياسي.

تكاثر الخصـــوم

بعد خمس سنوات، وفي الذكرى العاشرة للفاتح ذهبت إلى ليبيا من منفاي الأوّل في لبنان، هذه المرّة مراسلاً لمجلة (الحرية). رأيت القذافي للمرّة الثانية وقد بدت عليه مسحة من الحزن وظهرت التجاعيد في وجهه بعد سلسلة الخيبات الوحدوية. صار المضمر في سلوكه أكثر من المعلن وحسب أمين سرّ مراسمه نوري المسماري «فهو يتكلّم عن أمر بينما يقصد أمر آخر.»[1] صار كلامه غطاءً تمويهياً لعمليّات الاغتيال التي يأمر بها. كان يسمّي معارضيه «الكلاب الضالّة»، كأنّ أمرهم لا يهمّه، لكنه

(١) في حديث للحياة أجراه غسان شربل ١٦ تموز ٢٠١٢.

مكتبة الفكر الجديد

يصفّيهم بالاغتيالات. يحضر مؤتمرات القمّة رافعاً رأسه ترفّعاً وعلى فمه ابتسامة ساخرة من الجميع. ورغم أنّه لم يكن مدخّناً لكنّه تعمّد التدخين داخل المؤتمرات العربيّة تعبيراً عن ضجره من كثرة الكلام وقلّة الأفعال. دخل في سلسلة طويلة من العداوات مع الزعماء العرب وفتح أبوابه وخزائنه للمعارضين المطرودين من بلدانهم فصارت ليبيا محجّاً دائماً لقادة المعارضات العربيّة وحركات التحرّر المسلّحة. كنت أراهم في فندق البحر الأبيض المتوسّط وقد مضت عليهم أسابيع ينتظرون بصبر عجيب أن يستدعيهم محاسب القصر لدفع المعونات السنوية.

المال تسنده فجاجة سليقيّة ترجع لأصله البدوي الفقير، كان سنده في الترفّع المتعالي والرغبة في إذلال الزعماء الذين يقابلهم فيخاطب الشباب منهم (بشّار وملك المغرب وملك الأردن وأوباما) بعبارة «يا إبني» تصغيراً له. أمام المئات ممّن حضروا مؤتمر الشعب العام أذلّ الرئيس الإيطالي برلسكوني حين قدّم له يده ليقبّلها، وأجبر كوفي أنان على أن يقطع طريقاً طويلاً في ظلمة الصحراء ليقابله في خيمة، بل إنّه دفع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح حتى كاد أن يوقعه أرضاً حين حاول الأخير أن يقنعه بالعودة لاجتماع القمّة. الاحتقار صار الطاغي على سلوكه كلّما ازدادت أوهامه عن نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

في زيارتي الثانية رأيت القذافي يرتدي أربع أزياء مختلفة في يوم واحد. في الصباح استقبل العشرات من ضيوفه ببدلة تقليدية ليبية. وكان يصافح ببطء وهو ينظر قليلاً أعلى من رؤوسهم في نوع من الترفّع ويتمتم كلمات بالكاد يسمعونها. بعد الغروب رأيته يصافح مئات الجنود المصطفّين في طوابير في الساحة الخضراء وهو يرتدي بدلة عسكرية مطرّزة بالنجوم والأوسمة، لا يعرف أحدٌ مَنْ منحها له وفي أيِّ حرب. وبين الصباح والمساء رأيته في التلفزيون في مقابلتين، واحدة مع ضيف أفريقي.. على خلاف ضيفه الأفريقي الذي ارتدى بدلة سموكنغ رسمية، ارتدى القذافي قميصاً أفريقياً على شكل جلد نمر. بعدها بساعتين التقى ضيفاً أوروبياً ببدلة سافاري.

خلال الـ٤٢ عاماً، وهي أطول فترة حكم لرجل واحد، بدّل القذافي سياسته ونظرياته في الحكم بمقدار ما غيّر ملابسه. وكانت هذه الدولة السيِّئة الحظّ التي شهدت سلسلة حروب واحتلالات عثماني، إيطالي، فرنسي إنجليزي مسرحاً لتجريب أفكاره. فقد عاشت ليبيا، بما تملكه من ثروة نفطية هائلة وإرادة شعبية مسلوبة، تاريخاً من التجريب لم يعشه أيّ بلد آخر في العالم.. بدأت بتكرار تجربة الاتحاد الاشتراكي الناصرية، ثم اشتراكيّة إسلامية تقتدي باشتراكية الحروب في عهد الراشدين. ثم جماهيرية تقودها اللجان الشعبية.

مكتبة الفكر الجديد

لم ينظر القذافي و لم يُرِد لليبيا أن تكون دولة كما لم يرد لنفسه لقب "رئيس" إنما سَمَّى نفسه "قائداً" لثورة دائمة. منذ الأيام الأولى بدأ بتفكيك مقوِّمات دولة توحّدت قبل ست سنوات من انقلابه الأبيض. لم يضع لبقايا الدولة دستوراً ولا حتى ميثاقاً على طريقة ناصر. فقد بقيت ليبيا وسط متاهة (نظرياته) حالة متحوِّلة مثل رمال الصحراء أو كياناً ناقصاً لا يتكامل إلّا إذا اندمج مع دولة أخرى في وحدة اندماجية. وما أكثر وحدات القذافي:

- ميثاق طرابلس الوحدوي في ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩ بين مصر – السودان – ليبيا.
- إعلان القاهرة في سنة ١٩٧٠ الذي استند إلى مبادئ الثورة، الحرية، الاشتراكية، الوحدة بين البلدان الثلاث.
- اتحاد الجمهوريات العربية ١٩٧١/٤/١٧ بين ليبيا، مصر، سوريا.
- الوحدة الاندماجية بين ليبيا ومصر سنة ١٩٧٢.
- المسيرة الوحدوية التي قادها من رأس أغادير متّجهة إلى مصر
- الوحدة العربية الاندماجية ١٨ يوليو ١٩٧٣.

مكتبة الفكر الجديد

- بيان جربة لإقامة الجمهورية العربية الإسلامية بين ليبيا وتونس بورقيبة في ١٢ أبريل ١٩٧٤
- بيان حاسي مسعود الوحدوي بين ليبيا والجزائر ٢٨ ديسمبر ١٩٧٥.
- المساعي الوحدوية مع سوريا والسودان لتحقيق الاندماج السياسي والاقتصادي.
- بيان وجدة الوحدوي بين المغرب وليبيا في١٨ اغسطس ١٩٨٤ لإقامة الاتحاد العربي الإفريقي.
- دعوة الأقطار العربيّة في سنة ١٩٨٨ إلى الانضمام للاتحاد العربي الإفريقي الذي أقامه مع المغرب سنة ١٩٨٤ والذي اعتبره بوابة لوحدة عربيّة شاملة.
- المشروع الوحدوي الذي قدّمه في مؤتمر القمّة العربي لسنة ١٩٨٨.
- إزالة الحدود والبوابات الوهميّة بين ليبيا وتونس من جانب ومصر من جانب آخر في سنة ١٩٨٨.
- إتفاقية مراكش لاتحاد المغرب العربي في سنة ١٩٨٩.
- مشروع الاتحاد العربي المطروح على رؤساء وملوك الدول العربية.
- مشروع الاتحاد العربي الأفريقي.

كان القذافي دائماً على عجلة من أمره، لا يعترف بتدرّجات الزمن ويريدها من النهاية: وحدة اندماجية. وحين يخذله تردّد الزعماء يلجأ إلى الزحف الجماهيري للقيام بفعل رمزي، هو إزالة الحدود بالجرافات. الحدود لإبن الصحراء ووريثها تبدو له العائق الوحيد أمام التمدُّد.

مكتبة الفكر الجديد

حين باءت كلّ محاولاته العربية بالفشل. تحوّل مشروعه القومي العربي إلى مشروع أفريقي، وهذا ما دعاه إلى إطلاق لقب «ملك ملوك أفريقيا» على نفسه.

الجمهور بدلاً من المواطن

مثل كل الدكتاتوريّين أَحَبّ القذافي الجمهور بمقدار ما مسح (المواطن) الفرد من مخيّلته. أَحَبّ الجمهور ورفض أيّ مؤسسات وسيطة بينه وبين هذا الجمهور. حُبّ الجمهور كان في صلب نظريته الثالثة التي تقوم على سلطة الشعب عن طريق الديمقراطية المباشرة من خلال المؤتمرات الشعبيّة الأساسيّة كأداة للتشريع، واللّجان الشعبية كأداة للتنفيذ. لم تكن مهمّة اللجان الثورية الوصول إلى الحكم، إنما إزاحة بقايا مؤسّسات الدولة واختصار المسافة بين الرأس الذي يفكّر والجمهور الذي ينفّذ.

حبّ الجمهور، وليس المواطن، هو سرّ هذا الكتاب، وسرّ النزعة الاستعراضيّة التي ميّزت معظم الدكتاتوريين. في بداية الثمانينات رأيت القذافي للمرّة الثالثة يطلّ على الحشد من المنصّة مرتدياً النظارة السوداء التي ما عاد يرى إلا من خلالها. آنذاك انحنيت على المرافق الليبي وسألته:

– لِـمَ يرتدي النظّارة والوقت غروب ؟

بعد تلكّؤ أجابني المرافق:

– لديه حساسيّة تجاه الضوء الحاد.

مكتبة الفكر الجديد

مهمّة الحشد الذي مرّ أمام المنصّة، كما هي دائماً أن يؤكّد الولاء للقائد ولنظريته الثالثة. الكوادر الوسيطة بين القائد والجمهور كانت تحمل مكبّرات صوت وتلقي على الجمهور هتافات:

– ثورة شعبيّة... ضد الرجعيّة... لا شرقيّة... لا غربيّة.

على الجمهور أن يردّد بعد الهتاف كلمة مكرّرة واحدة:

– الفـــاتـحّ!

بِـمَدّ الألف وتشديد الحاء.

استمرّ الاحتفال حتى ساعة متأخّرة بعد منتصف الليل، وعندما غادر القذّافي المنصّة وغادرنا نحن بعده، كانت السيارات التي حملتنا لموقع الاحتفال قد غادرت، ومعها الأدلّاء الذين قادونا، لذلك تحتّم علينا، أن نعود إلى الفندق مشياً على الأقدام وعبر دروب نجهلها وفي ساعة متأخّرة لا يوجد فيها أحد لنسأله.

ما زلت أتذكّر ليلة التيه تلك وأنا أبحث عن الدكتاتور التائه. أبحث عنه في هذه الصحراء وأبحث فيه: –بماذا يفكّر في هذه اللحظة التي أكتب فيها عنه؟ كيف وقف على (تلّة العبرات) ونظر إلى قلاعه وهي تحترق خلفه؟ ماذا تمتم لآخر الحراس الذين رافقوه؟ كيف نام لياليه بعد أن فارق السلطة التي أدمنها طوال ٤٢ عاما؟ كم مرّة فزّ من نومه وهو يتوجّس خيانة أقرب حرّاسه إليه؟

مكتبة الفكر الجديد

علي صـــالح والإخوة الأعداء

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

قبل أن يودِّع اليمن مهزوماً ومطارداً بأكثر من ٢٢ عاماً، استقبلني الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في مطار صنعاء قبيل توقيع الوحدة بيومين بوقفة استعداد حازمة وخيال ابتسامة مقتصدة. كانت صورته أمامي على جدار قاعة الاستقبال من أسفل الصدر بالحجم الطبيعي. رغم الزيّ المدني، بدى كما لو أنه خرج من جوف المدرّعة في استعراض عسكري ليأخذ التحيّة أمام المنصّة. لقد أحبّ الرئيس هذه الوقفة المقتبسة من خدمته في صنف المدرّعات وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد، وبقيت ملازمة لكلّ صوره الرسميّة.

تحت الصورة وعلى اليمين قليلاً وقفت سيِّدة طويلة القامة بشكل ملفت للنظر مغطاة بالسواد من فوق إلى تحت. وسط هذه الكتلة من السواد أسرتني عينان متّسعتان فيهما سحر الكمين وغموضه، تطلّان من فتحتين مشبّكتين تُتابعان تدفّق المسافرين. العينان الوقحتان التصقتا بظهري وأنا أحاول أن أفلت من سحرهما. عند نقطة تفتيش الحقائب اليدويّة اقتربت العينان من محتويات حقيبتي ثم امتدّت أصابع طويلة مغطّاة بقفاز أسود والتقطت من بين محتويات حقيبتي المبعثرة دفتري وشريط فيديو عن ندوة مرسلة بيدي لأحد قادة الجزء الجنوبي من اليمن. تصفّحت السيّدة أوراق الدفتر الفارغة وألقته بإهمال وأخذت الشريط من دون أن تستأذن أحداً ومن

مكتبة الفكر الجديد

دون أن تنبس بكلمة وغابت في ممرّ جانبي. سألت رجل الأمن الذي فحص حقيبتي وأوشك أن يسلّمني محتوياتها، فقابلني بالصمت والاستغراب. تشاركنا العجز عن حلّ لغز السّيدة السوداء وما الذي ستفعله بشريط الفيديو. رفعت رأسي قليلاً فوجدت الرئيس ما زال باستقبالي بالابتسامة نفسها المقتصدة « هذا إجراء عادي».

وقفة الرئيس الحازمة وعيون المرأة التي سحرتني وأصابعها التي خطفت دفتري وشريط الفيديو ظلّت تتابعني وتغذّيني بتلك الهواجس المتناسلة التي تتدفّق في خيال عراقي هارب من نظام « له يد طويلة». تلاحق معارضيه أينما ذهبوا. لم أنم تلك الليلة في الفندق الواقع وسط صنعاء من خيال أصابع طويلة داخل قُفّاز أسود ستطرق باب غرفتي، وخيال المرأة الموشّحة بالسواد واقفة في إطار الباب ستأخذني إلى مكان مجهول لا عودة منه.

الإخوة الأعداء

قبل أن ألتقي الرئيس علي عبد الله صالح وجهاً لوجه كانت صورته تطاردني أينما ذهبت، ببدلة الجنرال وقد تَغطّى صدره بالنياشين، بملابس القبائل مرتدياً الجلابيّة البيضاء والخنجر في حزامه، ببدلة رسمية وبربطة عنق حمراء. في قاعات الفندق اجتمعت وفود ممثّل القبائل والأحزاب آتية من اليَمَنَين الجنوبي والشمالي. غداً سيحضرون الجلسة الأولى للبرلمان الموحّد لمناقشة مسودة الدستور. خليط غريب ومتناقض من المؤتمرين: إشتراكيون وشيوعيّون جاءوا من الجنوب يريدون أن ينطوي الدستور الجديد على لمسة ما من العدالة الاجتماعية ويخفّفوا ولو قليلاً من المسحة الإسلامية التي

مكتبة الفكر الجديد

نسمُ مسودة الدستور، يقابلهم أصوليون بلحى حمراء وشوارب حليقة شدّوا خناجرهم (جنابياتهم) على بطونهم كانوا إلى ما قبل أيام يتّهمون الإشتراكيّين الجنوبّيين بأنهّم كفرة وزنادقة يستحقون الذّبح. شيوخ قبائل وإقطاعيين ما زالوا يؤمنون بالرقيق، يقابلهم نقابيّون جاءوا ليثبتوا حقوقاً للفقراء. ناشطات نسويات سافرات حفظن عن ظهر قلب سوراً من القرآن تؤكّد على حقوق النساء، تقابلهن نساء ملفّعات بالسواد كتلك التي رأيتها في المطار... كيف سيجتمع هذا الخليط المتنافر تحت قبّة برلمان واحد وكيف سيجمعون على دستور واحد؟

الرئيس علي عبد الله صالح الذي طوّق الجميع بصوره غير معنّي بالإجابة، فهو المنتصر الوحيد وسط هذا الحشد لأنّه، كيف ما كان، حقّق المعجزة التي عجز عن تحقيقها كلّ الحكّام الذين سبقوه، قاتلين من أجلها أو مقتولين.

مكتبة الفكر الجديد

من الفندق أخذنا المرافقون إلى قاعة البرلمان في تلك الجلسة التاريخية التي سيقرّ المجتمعون فيها ما أقرّ قبل ذلك خارج القبّة. على المنصّة جلس رئيس البرلمان الدكتور ياسين نعمان الذي يفترض أن أسلّمه شريط الفيديو، وفي المقدّمة جلس الرئيس القادم ونائبه علي سالم البيض. كِلا الرئيسين جاءا من سلسلة اغتيالات قادة سبقوهم. فقد انتهت تجربة البناء الإشتراكي في الجنوب بسلسلة تصفيات شملت رفاق الأمس: بعد مقتل سالم علي ربيع شهد الجنوب انفراجاً نسبياً حين تولّى علي ناصر محمد الرئاسة، لكنّه هدوء يغلي من تحت بالكراهية والتآمر. كنت في عدن قبل المذابح في ٢٣ تموز ١٩٨٦ بأيام، أسمع أحاديث الوسطاء من اليساريّين العرب يعودون من اللقاءات متعبين وينفضون أيديهم يأساً: «ما من فائدة!» كل طرف يشحذ سكاكينه ويجمع قواه القبليّة ضد الآخر «حاندقوا!». ذهبت برفقة أبو فراس من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لإجراء لقاء مع الرئيس علي ناصر محمد. طوال الطريق إلى قصر الرئاسة كان نعيق الغربان يصمّ آذاني ويتردّد في الصمت حتى أنّني التفتُّ في حديقة القصر بفزع حين سمعت زقزقة عصفور. خرج سكرتير الرئيس لاستقبالنا وخلفه في الغرفة رجل وحيد مطرق إلى الأرض يفرك يديه من نفاذ الصبر. فيما بعد عرفت أنّ هذا الرجل الذي تركناه خلفنا هو رئيس الجنوب القادم علي سالم البيض دعاه الرئيس الحالي في محاولة أخيرة لترويضه قبل المذبحة. لم يكن الرئيس حين دخلنا عليه في مزاج مقابلة، كان يبربر لوحده وقد غيّر مكانه قي الغرفة ثلاث مرات، ولم يكن لديه ما يقوله، لأنه يحضّر في خياله شكل المقتلة القادمة التي ستحدث في هذا المكتب بالتحديد. بعد أقلّ من أسبوع دخل

مكتبة الفكر الجديد

حرّاسه الشخصيون على الرفاق المجتمعين بانتظار الرئيس، وضعوا حقيبته على مائدة الاجتماع ثم سحبوا أقسام رشاشاتهم وأطلقوا النار...

كان اغتيال عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر فاتحة الدم للحرب الأهليّة التي صدمت في بشاعتها الجنوبيّين والوسطاء اليساريّين وختاماً دموياً لتجربة البناء الاشتراكي في الجنوب. من سلسلة المذابح في الجنوب وصل الرئيس الجنوبي علي سالم البيض إلى برلمان الوحدة في صنعاء جالساً في الصفّ الأمامي إلى يمين الرئيس الشمالي. رأيت على وجهه علامات الخيبة أكثر من علامات الابتهاج بالوحدة.

في الشمال وصل علي عبد صالح إلى السلطة عبر طريق مختلف تماماً، فعلى خلاف نائبه الذي جاء عبر الحزب صعد علي عبد صالح فوق حصانين، الجيش والقبيلة. للصبي، الذي وُلِد يتيماً وفقيراً في قرية جرداء بمنطقة سنحان في محافظة صنعاء كان الجيش خلاصاً من الفقر والذّل. كان

مكتبة الفكر الجديد

في العاشرة من عمره حين عمل كراعي في مناطق تأكل خرافها الشوك بدل الأعشاب. وبفضل انتمائه لواحدة من أكبر عشائر اليمن (حاشد) تمكّن هو وإخوته من دخول الجيش.

أتصفّح ألبوم صوره، وفي الفترة التي سبقت الرئاسة، فأرى تناوباً بين الزي العسكري حسب المراتب والزيّ القبلي حسب القبائل التي يستضيفها أو تستضيفه. يتداخل الجانبان دائماً، فالانتماء القبلي يسهّل للجندي القبول واختصار مراحل الصعود والخدمة في المناطق التي يريد. في أول وقفة له أمام الكاميرا ينظر الجندي ذو الستة عشر عاماً بوجهه النحيل بفزع كأنّ قذيفة ستأتيه حالما يرفع المصوّر الغطاء عن العدسة.

وفي آخر صورة له في أواسط الثمانينات في بدلة الجنرالات تغطّي الأوسمة صدره، وما من أحد يعرف في أيّ متاهة حصل الجنرال على كلّ الأوسمة ، فقد خاض كلّ الحروب، حروبه وحروب البلد وأيضاً حروب الآخرين. قاد كلّ حروب التوحيد والانفصال وحروب القبائل ، وكان ثاني زعيم عربي بعد الملك حسين يشارك في الحرب على إيران. في صور نادرة عنه مع صدام في واحدة من جبهات الحرب مع إيران، يظهر علي صالح مع ثلّة جنود متطوّعين يمنيّين، يحاول جاهداً أن يتقدّم على صدام نحو خطّ الجبهة الأوّل، لكن خطواته أقصر، ولأن حماية صدّام لن تدع أحداً يتقدّم على القائد. في النهاية يتيح له صدّام (شرف) إطلاق صاروخ على إيران بضغطه على زر.

مثل نائبه الجنوبي وصل الرئيس الشمالي بعد سلسلة اغتيالات شملت

مكتبة الفكر الجديد

من سبقوه إلى رئاسة الشمال. ففي جوّ عربي من تحوّل القوميين العرب نحو اليسار بعد نكسة حزيران، وصل إبراهيم الحمدي العام ١٩٧٤ الى السلطة بأجندة ثورية متبنيّاً تصوّراً اشتراكياً للتنمية في اليمن الشمالي ضد شيوخ القبائل. عشيّة سفره إلى الجنوب لوضع تصوّر لاتفاقية الوحدة قُتِل هو وشقيقه في غرفة في الفندق. وسُجِّلت القضية ضد مجهول، لكن مثقّفين يمنيّين همسوا في أذني بأنّ علي صالح هو الذي أطلق الرصاص عليهما من مسدّسه ثم تتالى أعوانه بعده بطعنات الخناجر، وأكّدوا لي بأنّهم سمعوا هذه الحكاية من مصادر قريبة من الرئيس.

بعد مقتل الحمدي صعد أحمد الغشمي الى رئاسة جمهورية الموت، وحال صعوده عَيّن علي عبد الله صالح حاكماً عسكرياً لمحافظة تعز، لكن رئاسة الغشمي لم تدم طويلاً، ففي أقلّ من عام انفجرت فيه حقيبة يفترض أنّها أرسلت له من الرئيس الجنوبي سالم ربيع علي. الرئيس الجنوبي نفى أن تكون حقيبة الموت مرسلة منه، مع ذلك لم تشفع له براءته فقد قُتِل المُرسل بعد أشهر من مقتل المُرسل إليه.

مكتبة الفكر الجديد

بعد اغتيال رئيسين شماليين قفز صالح إلى موقع الرئاسة من دون أن يسأل أحداً، ثم وبتحالف القبائل والجيش انتخبه البرلمان رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلّحة قبل أن يتعلّم قراءة القَسَم من الورقة المكتوبة. بعد شهر من تسلّمه الرئاسة واجه الرئيس وهو يتناول فطوره أوّل محاولة انقلابية عليه، حيث احتلّت مجموعة من الضبّاط أهم مؤسّسات الدولة ومنها المطار. لكن أنصار علي عبد الله صالح استطاعوا إفشال الانقلاب بعد ساعات. وقد روى لي عسكري شاب معجب بشجاعة الرئيس كيف أنّ علي عبد صالح فاجأ المنقلبين بأنْ «نزل في المطار بطائرة هليكوبتر ومعه ثلاثة فقط من مرافقيه. الإنقلابيون اعتقدوا أنّ أعوان الرئيس طوّقوهم، لذلك انسحبوا». في ١٠ أغسطس ١٩٧٨ أشرف علي عبد الله صالح بنفسه على عملية إعدام ٣٠ من الضباط المشاركين في الانقلاب مطلقاً بنفسه أولى الرصاصات.

مكتبة الفكر الجديد

مجموعة المثقّفين اليمنيين نفسهم، ومنهم شاعر يساري ناصري قال لي: إذا أردت أن تعرف علي عبد الله صالح فتذكّر رئيسكم صدام حسين، إنّه بالنسبة لنا صدّام الصغير، في تقلّباته بين العشائرية والتكنوقراط، في اعتماده على أقاربه في الأجهزة الأمنية، في تصفية خصومه بالاغتيالات. موهبته تكمن في حسّه الأمني وفي معرفة خصومه ونياتهم. يباغتهم قبل أن يتحرّكوا. الإغتيال أشدّ ما يخيفه، لقد جرّبه مراراً. لذلك لا يأمن أحداً من حوله، حتى أقرب حرّاسه إليه. خلال الصلاة لا ينظر إلى مكان سجوده، إنما لمن حوله. «تعرف أنّ رئيسكم هو الذي غيّر تسريحة رئيسنا. قال له إن هذا الشعر الطويل يليق بالخنافس ولا يليق برئيس دولة وحلق له داخل القصر.. إنّه معلّمه في السلطة وفي طريقة الكلام والمشي، مع فارق أنّ رئيسنا (دحباش)، لم يقرأ كتاباً واحداً في حياته غير القرآن، وقد قرأه سماعاً عندما درس خلال طفولته في (المعلامة) عند كتاتيب القرية. نشعر بخجل حين يلتقي رئيسنا قادة العالم، بأيّ لغة سيتكلّم معهم وماذا سيقول؟».

مكتبة الفكر الجديد

هروب من فشلين

خلال جلسة البرلمان الموحّد كنت أراقب هذا الـ (دحباش) في الصف الأمامي تاركاً نائبه إلى يساره وموجّهاً حديثه لشيخ عشيرة إلى يمينه أضنه الأحمر. لم يشارك كثيراً في النقاشات، و لم يبدِ اهتماماً بها. كان بانتظار لحظة محدَّدة. حين ذُكر اسمه أفلت قبضتي الكرسي من يديه ووصل المسرح بقفزتين نشيطتين. لقد أصبح رئيساً لليمنين بدلاً من يمن شمالي واحد.

خرجت من البرلمان دون مرافق أو دليل إلى مدينة عرفت أساطيرها قبل أن أعرفها. على جبال السروات ترتفع عالياً مدينة صنعاء التي بناها سام ابن نوح لسلالته بعد أن جرّب دمار الطوفان. هنا كما يقول الرواة قامت مملكة سبأ وعرش بلقيس والنبي سليمان، وبين هذه الحجارة القديمة الحمراء مرّ العديد من الصحابة.

من (باب اليمن) أدخل سوق الملح فيختلط التاريخ بروائح البخور والتوابل. أردت أن ألمس في هذا السوق فرح الناس بأعياد الوحدة، لكني لمست الريبة قبل ذلك. العجوز الذي حفر اسمي على نحاس المهر قال لي «طبعاً هو عيد، المهم أن يدوم». على عكسه بدا الرئيس علي عبد الله صالح فوق أقواس الزينة واثقاً من أنّه فعلها في النهاية.

عدت إلى الفندق فوجدت شريط الفيديو عند الاستعلامات مغلّف وعليه إسمي دون كلمة من السيّدة الملفعة بالسواد التي اختطفته مني.

في الصباح الباكر أيقظني صراخ علي عبد الله صالح، يلومنا أنا ونائبه لأنّنا خدعناه وجئنا به إلى صحراء قفرة بحثاً عن شريط مفقود ، يصرخ لأنّه، تاه معنا وتاه موكبه ومدينته. أيقظني صراخه وهو صراخي في الكابوس.

مكتبة الفكر الجديد

عَلَمُ الوحدة

تجمّعنا في المطار للطيران، وفي الحقيقة للهبوط من صنعاء إلى عدن ارفع علم الوحدة هناك. في صالة المطار وتحت صورة الرئيس بحثت عن ملك المرأة الملفعة بالسواد فلم أجدها. لانتظار الطائرة أدخلنا المرافقون للقاء الرئيس ونائبه. الرئيس نفسه كان يتحدّث للتلفزيون مائلاً بكتفه الأيمن نحو الكاميرا. لمرّتين طَلَب منه المصوِّر أن يوقف تحريك يده حتى لا يقطع المايكرفون. وفي غفلة منه قال لي نائبه علي سالم البيض "كلانا فشل في بناء النظام الذي أراده، فقد فشلت الرأسمالية في الشمال وفشلت الاشتراكية في الجنوب". وفهمت من كلامه بأنّ وحدة المتناقضين كانت هروباً من فشلين.

في عدن تتبّعنا موكب الرئيس وفوهات رشاشات حرّاسه تتّجه نحونا. كانت هذه زيارته الثانية بعد الزيارة (الظافرة) في أعقاب الحرب الأهليّة في عدن. استقبالاً لموكبنا كانت عدن تنزع آخر ثياب الاشتراكية والعلمانية. العمّال تسلّقوا الأعمدة لينزعوا من الأقواس الحديدية آخر النجوم الحمراء. القبائل الجنوبيّة أزاحت النقابات والمنظمّات السابقة وخرجت لتستقبل قبائل الشمال: مرحباً بالرفاق! النساء الحاسرات يبحثن بقلق عمّا يغطين به رؤوسهن وقد زحف أصوليو الشمال القبلي المحافظ على الجنوب العلماني. محلات المشروبات الكحولية أغلقت قبل أن نصل بيومين. ذهبت للسوق الحرّة في المطار لأشتري قنينة فودكا لصديق من الشمال فوجدت حراس الرئيس صالح سدوا السلالم وبيد كلّ منهم سجادة يستخدمونها للنوم في العراء وللصلاة خلف الرئيس. بهذه السجاجيد لفّوا آخر قناني الكحول التي تبقّت في السوق الحرة.

لم نرَ الجزء الذي جئنا من أجله، وهو رفع علم الوحدة، لأن حرّاس

مكتبة الفكر الجديد

الرئيس قطعوا علينا الطريق. ورغم توسّلات مرافقينا، كان جواب الحراس: تعليماتنا تقول الرئيس ومرافقوه فقط! لكن في طرق عودتنا رأينا ما هو أهم من رفع العلم: ففي شارع جانبي رأينا تماثيل ماركس وأنجلز ولينين، وهي نسخ بيضاء من التماثيل السوفياتية، محمولة في سيارة بيك أب، إلى جهة مجهولة. بسبب وعورة الطريق كان الثلاثة يلطمون رؤوس بعضهم، ندماً أم ملامة؟

لم أتابع أخبار اليمن بعد هذه الرحلة، فقد شغلتني حروب العراق، حتى أيقظني شباب اليمن بمساهمتهم الباهرة في ربيع العرب. مع اندلاع المظاهرات في صنعاء رأيت علي عبد الله صالح مرّتين. مرة بعد غياب طويل في مستشفى سعودي وقد اسودّ وجهه من انفجار أصابه في القصر، ومرّة أخرى في خطاب متعثّر باهت قبل أن يغادر البلد مهزوماً: اعذروني عن أيّ تقصير؟! كانت هذه الكلمات الباهتة خاتمة ٣٤ عاماً من حكمه؟! كنت أتابع في التلفزيون حزمة من النساء اليمنيّات المتظاهرات، وبين حشد النساء سألت نفسي: أيّ منهن تلك المرأة التي رأيتها عند وصولي ملفّعة بالسواد؟

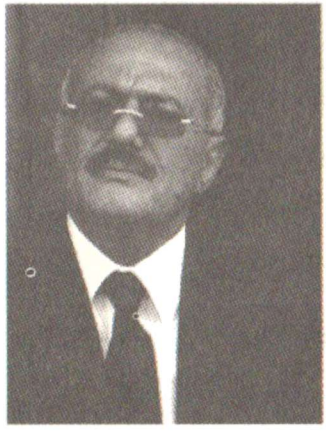

مكتبة الفكر الجديد

بين الأسدين:
الأب: رجل النكسة والانقلابات

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

قبل الأسدين كانت سوريا أوّل بلد أزوره في حياتي خارج العراق، وبوجودهما كانت أوّل بلد أدخله هارباً من العراق بجواز عربي مزوّر يحمل إسم ناظم كمال (تاجر أدوات احتياطية). في هذا البلد وفي لبنان قضيت ١٣ عاماً معظمها تحت حكم الأسد الأب، وشهر واحد منها حين جلس الابن مرتبكاً على كرسيّ والده.

كانت زيارة سوريا ممنوعة على العراقيين كما مُنِع السوريون من زيارة العراق رغم أنّ البعث الذي يحكم البلدين يضع (الوحدة) في قمّة ثالوثه المقدّس. العداوة العائلية بين القيادتين فُرِضَت على الشعبين الأقرب لبعضهما، ففي جواز أيّ مواطن من البلدين مُنعت زيارة بلدين: إسرائيل وسوريا أو العراق.

مع ذلك كانت سوريا من البلدان القليلة التي تقبل لجوء العراقيّين الهاربين من إرهاب نظامهم، ولذلك تكوّنت أحياء عراقيّة، جوامع عراقية، مقاه وبارات عراقيّة. صارت دمشق جزءاً من التكوين العراقيّ في المنفى، فقد وُلد لنا أبناء هناك وكبروا وتعلّموا هناك وصارت السوريّة لهجتهم والأسد "أبوهم القائد" الذي يهتفون له كلّ صباح مدرسي.

لا تفارقني مشاهد دمشق وأنا أكتب عن حياتي تحت حكم الأسدين.

مكتبة الفكر الجديد

أحفظ ساحاتها واحدة واحدة..المرجة والصالحية والسبع بحرات ومحي الدين والمالكي... أحفظ تفاصيل الفنادق الرخيصة في المرجة التي كنت أتنقّل بينها في بداية السبعينات والبيوت العشرة التي سكنت فيها أعزباً ومتزوّجاً وأحفظ الطرق المؤدّية إليها كأنّني أطرق حجارتها الآن وأنا هنا في بيتي ببغداد.

خلال التجوال ألتقي الأسد حيثما ذهبت واتجهت منحنٍ قليلاً كأنّه في صلاة، منصتاً بحزم، مبتسماً بإجهاد، مقلّصاً عينيه من فكرة خطرت بباله. وأنا أتصفّح كلّ هذه الصور لطالما راودني نفس السؤال الذي طرحه الصحفي الديمقراطي غري أكرمان على الأسد العام ١٩٩٧:

– هل تعرف سيادة الرئيس، في طريقي رأيت صورتك في كل مكان، في كلّ الدكاكين، في كلّ نوافذ الباصات في كلّ الأعمدة...

وكنت أعرف أنه سيجيبني:

– أعرف ذلك، والأمر يزعجني بمقدار ما أزعجك. وقد أبديت احتجاجي مرّات، لكن الأمر لم ينفع. ووضعني الناس في موقف حرج. أحياناً أفكر بأن أتسلّل في الليل وأنزع كلّ هذه الصور.

... لم يفعلها. لوحاول لكنت تركت قدح الميماس من يدي وخرجت لأعاونه في نزع الصور من جدران دمشق القديمة لأنّ صورته تصادر التاريخ المختفي في حجارتها. لكني غادرت هذه الرغبة من دون رجعة حين صادفتني في واحدة من جولاتي المبكرة صورة للأسد في زقاق قديم وقد شطبت بسكين حاقد. غادرت الصورة مسرعاً من دون أن ألتفت كأنّني أنا الفاعل وأنّ صوره التالية تلاحقني.

مكتبة الفكر الجديد

رغم ولعه بالصور والتماثيل لكنّ حافظ الأسد كان بعيداً عن النزعة الاستعراضية التي تميّز بها صدام. لم يركب عربة ذهبية، و لم يطلق الرصاص من شرفة و لم يدخل البيوت ليفتش ثلاجات الناس... تصرّف كرئيس رصين وكيّس وفي الحيّز المرسوم. لم يتباهَ بحنكة عسكريّة في غرف العمليّات لأنّه كان عسكرياً، و لم يحاول أن يكون شعبوياً فقد عزل نفسه عن الناس مفضّلاً ملاقاة الناس عبر الحزب.

لم أره وجهاً لوجه رغم أنّي عشت ١٣ عاماً في سوريا. بدلاً من الأصل كنت أرى تمثاله في واحدة من أجمل ساحات دمشق (عرنوس). عند هذه الساحة تتقاطع الشوارع المؤدّية إلى الطلياني والحمرا وشارع الباكستان. وعندها يلتقي إثنين من أهم أسواق دمشق. ومع أنّ الأسد نادراً ما نزل إلى الأرض واختلط بالناس، إلا أنّه أراد تمثاله واقفاً على الأرض برسوخ وسط زحمة السوق، أطول بمرّات من قامته الحقيقية، يحيّي الناس بيده اليمنى التي تتقدّم قليلاً أمام الوجه ولا ترتفع عالياً كما معظم القادة. "المنكّتون" السوريون يهمسون حين يمرّون بهذا التمثال:

مكتبة الفكر الجديد

– أنظر إليه! يحاول أن يوقف سيارة تاكسي ولا أحد يقف له!

الفنان السوري الذي نحت هذا التمثال بمزيج من الحرج والخوف لم يجلس أمام الرئيس كموديل، إنما تمعّن طويلاً بصوره ودرس حركات الأسد الأكثر دلالة عليه، ومنها انحناءة ظهره وارتخاء يده وتسطّح مؤخرة رأسه.

رجل من القصر يزور النحّات في مشغله باستمرار، متحرّجاً أكثر من النحّات نفسه. يريد أن يقول ملاحظاته، لكن لا يعرف كيف يصوغها، وفي ذهنه أنّ الرئيس نفسه سيعطي الموافقة النهائية: هل التمثال يشبهه أم لا، وحتى لوكان يشبهه فهل يتطابق مع الصورة التي يريد أن يبدو بها؟ التماثيل تختلف تماماً عن الصور، الصور عابرة كما أصحابها تتقادم مع الزمن والأنواء، أمّا التماثيل فتتصل بالخلود في مواجهة المواطن العابر. التماثيل تريد أن تؤبّد السلطة بوجه الزمن.

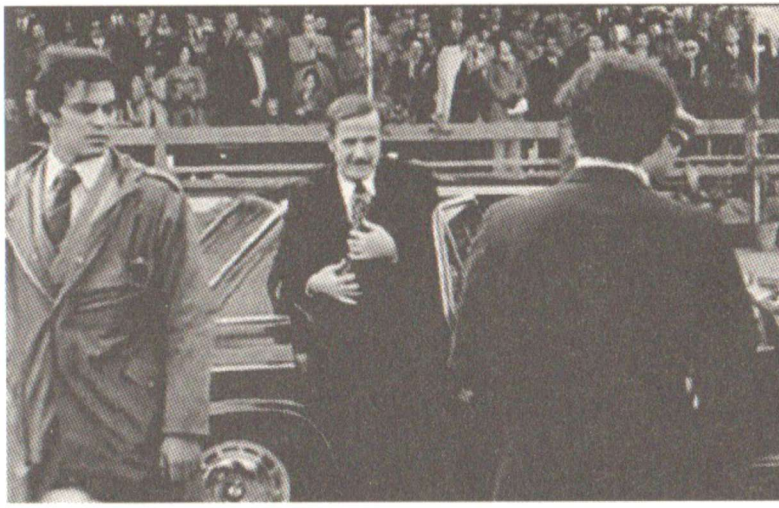

مكتبة الفكر الجديد

بين كل الصور التي واجهتني للأسد نادراً ما رأيت الحماس في واحدة من صوره، فقد رأى الكثير من التغيّرات، صانعاً، مشاركاً أو شاهداً، ولذلك ما عاد هناك ما يثير حميته.. مثل معظم الزعماء العرب من معاصريه الذين حكموا بلادهم لفترات طويلة جاء حافظ الأسد إلى الحكم من قرية فقيرة تقع على مرتفع جبلي شاهق يطلّ على البحر. في هذه القرية (قرداحه) قضيت يومين في ضيافة عائلة علوية منغمرة في الثقافة كتابةً ومسرحاً. لم تكن العائلة مُحبّة لحافظ الأسد، بل على العكس كنت أسمع منهم الكثير من النقد والنّكات عنه. بيوت القرية القديمة بُنيت من حجارة الجبل الراسخة. كلّ ما في القرية هرم: الأشجار والبيوت والناس. من مضيفي عرفت السبب: أكثر الشباب يؤخذون للخدمة في الجيش والحمايات الشخصيّة. ما بقي في ذاكرتي من هذه القرية مقبرتها التي تقع في بقعة خالية في أعلى منطقة من الجبل تحت أشجار إبريّة ضليلة. هناك،كما أعتقد دفن حافظ الأسد جنب والده.

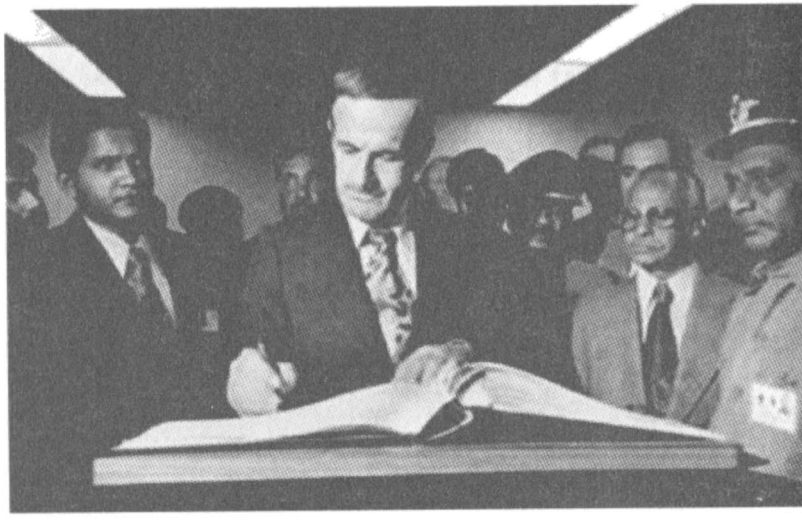

مكتبة الفكر الجديد

قبل ذلك عاش الأسد كلّ الانقلابات والانقلابات المضادة التي شكّلت التاريخ المضطرب لسوريا الحديثة. كان في الـ١٦ من عمره حين انضم لحزب البعث العام ١٩٤٦ في فترة الانقلابات العسكرية المتتالية. فالبعث كان الحزب السوري الوحيد الذي أيّد انقلاب حسني الزعيم العام ١٩٤٦ الذي حلّ الأحزاب جميعاً ومنها الحزب الذي استبشر به، وبعدها بستّة أشهر أيّدت قيادة البعث انقلاب سامي حناوي الذي أطاح بالانقلاب الأوّل وقتل حسني الزعيم، بعد شهرين وفي ٢٠ كانون الثاني أيّد الانقلاب الثالث الذي قاده العقيد الشيشكلي الذي كان معاوناً لرئيس الأركان العامة عند الحناوي. وفيما بعد منع الشيشكلي حزب البعث الذي أيّده بعد أن أغلق جريدته في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢.

منذ بداية حياته الحزبيّة، وكان دون العشرين من عمره، عاش الأسد الأب كلّ هذه الانقلابات وصارت مهنته داخل الحزب. فقد شارك في الانقلاب البعثي الذي أطاح بحكم القوتلي ووصل للسلطة العام ١٩٦٣ في نفس العام الذي وصل فيه الجناح العراقي من الحزب إلى الحكم بمجزرة دموية. كان قائداً للقوات الجويّة وقيادياً في الحزب خلال انقلاب صلاح جديد العام ١٩٦٦ الذي أطاح بالقيادة التاريخيّة ومنهم فيلسوف الحزب ميشيل عفلق واتّهمهم باليمينيّة وبإغراق الحزب بالفكر الغيبي والتواطؤ مع عبد الناصر لحلّ الحزب. وقامت القيادة الجديدة باعتقال عدد من أعضاء القيادة القديمة وفرّ آخرون، ومنهم ميشيل عفلق، إلى المنفى.

بعد أقلّ من عام ومن موقعه كوزير دفاع دخل الأسد في صراع مع القائد العام للقوات المسلّحة ورفيقه في القيادة صلاح جديد. مثل كلّ العسكريّين الذين خدموا في القوات الجويّة تعلّم الأسد أن لا يحلّق بسرعة. عليه أن يتفحّص أجزاء طائرته بدقّة ويسأل المهندس والخدمات الأرضيّة

مكتبة الفكر الجديد

عن التفاصيل قبل أن يصعد إلى قمرة القيادة. هذا ما فعله في السياسة أيضاً، فقبل أن ينقلب على رفاقه ضمن مساندة العسكريّن العلويّين وأوسع الموالين له. كلّ القريبين من قيادات الحزب كانوا يهمسون: "حتى إنّه لا يحتاج لانقلاب، فقد سيطر على المرافق العسكرية الهامّة، وما هي قدرات الحزبيين المدنيّين إذا تحرّكت الدبابات؟". البعض كانوا يقولون إنّ الانقلاب حدث، الجميع يعلم ذلك إلا المنقَلَب عليهم. مع ذلك استيقظ وزير الدفاع قبل الجميع صباح يوم ١٣ نوفمبر ١٩٧٠ وأمر قواته بالتحرّك، وتوجّهت فوهات الدبابات إلى مبنى القيادة القوميّة ومقرّ الإذاعة في البرامكة وسيطرت قوّاته على المدينة من دون مقاومة، وشكّل انقلابه واحداً من انقلابات القرى على المدن في العالم العربي.

من مشاركته في الانقلابات والانقلابات على المنقلبين، عرف الأسد الدرس تماماً فسَجَن رفاقه في زنزانات مجهولة لتنساهم الأجيال اللاحقة، حيث مات صلاح جديد في السجن وأطلق سراح نور الدين الأتاسي قبل وفاته بأيام. خلال ٢٣ عاماً من السجن غيّب الرفاق القدامى عن الحياة تماماً حتى أقرب الناس إليهم لم يعرفوا عنهم شيئاً. في دمشق يشير المتهامسون إلى قمّة قريبة من المدينة عليها سجن المزّة الشهير ويتهامسون:

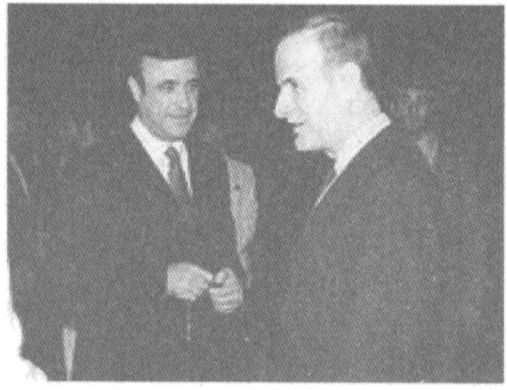

مكتبة الفكر الجديد

– في مكان ما هناك سُجنوا واختفوا...

ويردّ آخرون:

– معقول لحدّ الآن أحياء ولا يعرف عنهم أحد؟!

الأجيال الجديدة لا تعرف حتى أسماءهم وماذا كانوا يفعلون، فقد فُطموا على قائد واحد، وما من أحد قبله ولا بعده. وقد حفظوا عن ظهر قلب أنّ رئيسهم قاد "الثورة التصحيحيّة" لكنّهم لا يعرفون ضدّ من ثار وماذا صحّح؟

جيـل النّكسـة

كان الأسد وزيراً للدفاع حين حدثت نكسة حزيران العام ١٩٦٧ فاحتلّت إسرائيل جبل الشيخ وهضبة الجولان، أي ما يعادل ثلث مساحة سوريا وأصبحت دمشق تحت مرمى المدفعية الإسرائيلية. هذه الهزيمة شكّلت الجغرافيا النفسيّة للأسد ونهجه السياسي، فقد كان الاحتلال الإسرائيلي عقدة الزعامة التي أرادت أن تلعب دور البطولة. لم يصالح إسرائيل ولم يحاربها فعلياً بعد أن جرّب الهزيمة مرّتين. خاض العديد من الحروب في المنطقة، ضدّ الأخوان المسلمين في حماه، ضد الجيش الأردني في أيلول دفاعاً عن الفلسطينيين، ضد الفلسطينيّين في لبنان، ضدّ أعدائهم الكتائب، ضد البعث العراقي... لكنّه كان في كلّ الأحوال يتهرّب من مواجهة إسرائيل رغم أنّها ضربت قوّاته في لبنان مراراً. وكما هو الأمر مع زعماء عرب آخرين كانت المواجهة المؤجّلة مع إسرائيل الذريعة الدائمة لتأجيل الإجابة على سؤال:

مكتبة الفكر الجديد

– الديمقراطية؟

كنت جاراً لحافظ الأسد مرّتين خلال الـ١٣ عاماً التي قضيتها في سوريا على مرحلتين. في بداية السبعينات كنت أمرّ بين الحارس الوحيد وباب الشقة التي يفترض أنها ما تزال بيت الأسد. لم يوقفني الحارس ولا مرّة واحدة ليسأل عن هويّتي في الليل المتأخّر وأنا أعود للقبو الذي أتشارك فيه مع صديقي الفنّان قاسم حول. كنت أقارن بين حراسة القصر الجمهوري في بلادنا وحراسة الرئيس السوري، لكن فلسطينياً أجابني بسخرية:

– وتقول عن نفسك صحفي؟! معقول بعد كلّ هذه التصفيات في الحزب ويسكن نفس بيته ومع حارس واحد! هذا البيت للتمويه، شو عرّفك بأيّ بيت يسكن!

في النصف الثاني من الثمانينات سكنت قريباً من واحد من مداخل بيته، في قبو تسكن فوقه ملكة الطرب في الثمانينات مياده الحناوي. لمرّتين لاحظت أنّهم فتّشوا بيتي فلم يجدوا غير الكتب وزجاجة الخمرة.

على طول الطريق المؤدّي إلى بيته اصطفّ حراسه المتشابهون في طول قاماتهم وعرض أكتافهم وبدلاتهم الداكنة وطريقة وقوفهم باستعداد مشدّد. الرشاشات مخبّأة تحت الجاكيت الرسمي واليد اليسرى ممسكة بجهاز لاسلكي. كنت أسير في الشارع كالمخمور الذي يحاول أن يضبط خطواته وأنا أتخيّل صفّين من العيون تترصّد خطواتي بينما يدقّق الجالسون في البرج في تفاصيل جسدي.

في البيت الواقع في نهاية هذا الشارع الشديد الاستقامة والوضوح يستقبل الأسد ضيوفه ولا يأتي إليهم. وقد سمعت من قائدين فلسطينيين أنّه

مكتبة الفكر الجديد

اعتاد أن يلتقي ضيوفه في ساعة لئيمة، في الثالثة بعد الظهر، ولكن عليهم أن يتهيّأوا في الثانية عشرة. وحتى لو أخذوا وجبة خفيفة فإنّ الجوع سيقرصهم في موعد اللقاء فيقتل طاقتهم على الحوار والجدل وتكون له المبادرة والهيمنة في الحديث.

الجواهري كان استثناء في لقاءات الأسد، فقد كان الأسد يزوره في بيته في الجسر الأبيض، وعندما يزوره الجواهري في مقرّه ظهراً يستأذنه حالما تتجاوز الساعة الثانية ظهراً مقاطعاً الحديث:

– تسمح لي أبو باسل، صار وقت نومتي.

ذات يوم قرّر الأسد أن يغادر هذا البيت دون أن يخبرني باعتباري جاره، و لم أعرف أين ذهب. بعد أشهر، كنت في الطريق المتلوّي باتجاه دمّر حين فاجأني على حين غرّة قصر كأنّه خرج بغتة بفعل سحر ساحر. قصر بعيد وقريب على قمّة تل غارق في سحابة ضباب. سألت سائق السيارة عن سرّ هذا القصر فمال عليّ هامساً "إنّه قصر الرئيس الجديد". ونحن ننزل مع الطريق المتلوّي بقيت عيناي عالقتين بالقصر وموقعه الذي يطلّ على كلّ دمشق: "كيف تسري إرادته من هذا القصر المعزول إلى أجهزته المبثوثة في كلّ زوايا المدينة؟ ما هي الشيفرة التي تحرّك هذه الأجهزة باتجاه الحياة أو الموت، الفرح أو الفزع؟". من شرفة القصر يستطيع الرئيس المريض، وهو يتناول قهوة الصباح، أن يرى مبنى القيادة القومية، مبنى الإذاعة والتلفزيون، الموظّفين الذاهبين إلى دوائرهم من تحت صورته والطلاب الذين سيبدأون يومهم الدراسي بالنشيد له. من هنا سيرى معتقليه في سجن المزّة وهم يذوون في زنزاناتهم، ويرى مخبريه وقد انتشروا في المدينة بحثاً عن معارضيه حتى ولو في نياتهم... ويراني وأنا أغادر بيتي وأقطع المسافة القصيرة بين مدخل

مكتبة الفكر الجديد

بيته القديم إلى المكتبة التي تحمل اسمه (مكتبة الأسد). وقبل صعود السلالم العريضة أرفع رأسي قليلاً لأرى الأسد من المرمر الأبيض جالساً على كرسيه باسترخاء ولكن يده اليمنى ممسكة بمقبض الكرسي بقوّة. وقد وُلد لديّ يقين يعاكس بيت الجواهري "باق وأعمار الطغاة قصار"، فقد علّمتني الحياة بين دكتاتوريين بأنّ أعمار الطغاة طوال في شرقنا العربي، لا يفارقون كراسيهم إلا إلى القبر، وعاشت تحتهم أجيال كان الطاغية بالنسبة لها قدراً. مع ذلك توفّي الأسد وهو في الـ٦٩ من العمر بسرطان الدم الذي يأكل الإنسان من داخله كما تأكل السُّلطة صاحبها بأفعاله.

رأيت شبّاناً يبكون وهم ينظرون إلى نعش الرجل الذي أكل أعمار آبائهم وعجبت: لِمَ يبكون؟ على الأب القائد؟ على عمرهم الذي أُهْدِر دون أفق؟ أم على مستقبل غامض حيث لم يترك الطاغية بديلاً إلا وصَفّاه إعداماً، سجناً أو نفياً؟

حين غادر الأسد بيته القديم إلى قمّة التل غادرت القبو الذي يقع تحته لأسكن في الطابق الثالث من عمارة قرب مستشفى ابن النفيس بعيداً عنه وعن حرّاسه. لكن حرّاسه داهموني في بيتي وأنا أقرأ رواية "ليس لدى الكولونيل مَنْ يكاتبه" لماركيز. وقفوا بباب بيتي بقناصات بريجنيف وبنواظير مقرّبة. ابتسموا لي لتهدئة مخاوفي من هول المفاجأة:

– نحن هنا في سطح العمارة منذ أكثر من ساعة ونريد ماء.

منهم عرفت أنّهم احتلوا كلّ سطوح العمارات المحيطة بملعب الفيحاء ومنها سطح عمارتنا التي تبعد أربع كيلومترات من المكان الذي سيُلقي منه الأسد كلمته بمناسبة ذكرى الثورة التصحيحيّة.

مكتبة الفكر الجديد

لم أرَ الأسد أبداً مع أنّي رأيت في حياتي كثيراً من الأسود، بعضها في أقفاص في حدائق الحيوان وبعضها طليق في الغابة وبعضها محنّط في غرف رؤساء أحيلوا على التقاعد. ما أ قصده الرجل الذي لطول ما حكم سُمّيت سوريا باسمه (سوريا الأسد). وأقولها بصراحة لم يكن وجود الأسد هناك في هذا البلد يهمّني كثيراً، فقد كنت مشغولاً بالأسد الآخر الجاثم على صدر بلادنا مثل أسد بابل "بين سيفي بلاد ما بين نهرين". كنت أخوض سجالاً حاميا مع أديب سوري علوي: أي الأسدين أكثر ضراوة من الآخر، السوري أم العراقي؟ الأديب السوري، الذي رحل قبل أن يرحل الأسد مع أنّه يصغره بعشرة أعوام، كان يعدّد لي (منجزاته) الدموية واضعاً في المقدّمة مجزرة حماه العام ١٩٨٢، مجزرة سجن تدمر، حصار حلب، مجزرة تل الزعتر. وكان (يتباهى) بمجزرة حماه بأنها الأكبر والأكثر دمويّة في كلّ الشرق الأوسط.

أردّ عليه بتعداد "منجزات" (أسدنا): الدجيل، حلبجة، الأنفال، مجازر النجف وكربلاء... في النهاية ربحت الرهان لأني في النهاية لاجئ في بلاده. بقي صديقي العلوي يذكّرني دائماً بهزيمته ساخراً:

– تعرف كلّ يوم صباحاً، وعند حلاقة لحيتي، أحمَدُ ربّي لأنّ رئيسنا حافظ الأسد وليس صدّام حسين؟

كنت أسمع عن سجون سرّيّة في شوارع مغلقة وفي بيوت تحتها أقبية ومع ذلك أسير في شوارع دمشق محتضناً كُتبي وكأنّ الأمر لا يعنيني. في بداية الثمانينات قضيت ليلة واحدة، أطول من عام في زنزانة انفرادية بواحد من هذه الأقبية. من خلال ضوء مصفرّ رأيت أشباحاً لم أتأكّد أبداً من أشكالهم. كانوا يعيشون على الأصوات، لا يعرفون أين هم بالتحديد ولا ما

مكتبة الفكر الجديد

الذي تغيّر في الحياة خارجاً. بطريقة بارعة استنطقوني ليعرفوا هويّتي ومتى رأيت الحياة السويّة آخر مرّة وماذا كانت نتائج دورة كأس آسيا التي انتهت قبل شهرين. بسرعة فائقة تناقلوا عبر الزنزانات، آخر المعلومات عن السجين الجديد، وقدّروا أنني سجين طارئ وراحوا يسلّموني رسائل صوتيّة لأهلهم. كانوا يتحدّثون بصوت يشبه الحشرجة وآذانهم تتبع أصوات أقدام الحرس وصليل الحديد خوفاً من أن يكتشف الحّراس أنهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم. طوال الليل كنت أتتبّع صوت صراخ رجل وأزيز ماكنة. سألت وقد تعثّرت بصوتي عن الصوت. فأجابني جاري بنفس الفحيح الجارح "هذه هي جولة التعذيب الرابعة لهذا اليوم". لم أستطع النوم وأنا أتهجّس ألم الرجل من صرخاته. خفّت الصرخات تدريجياً من الوهن حتى سكت ونمت.

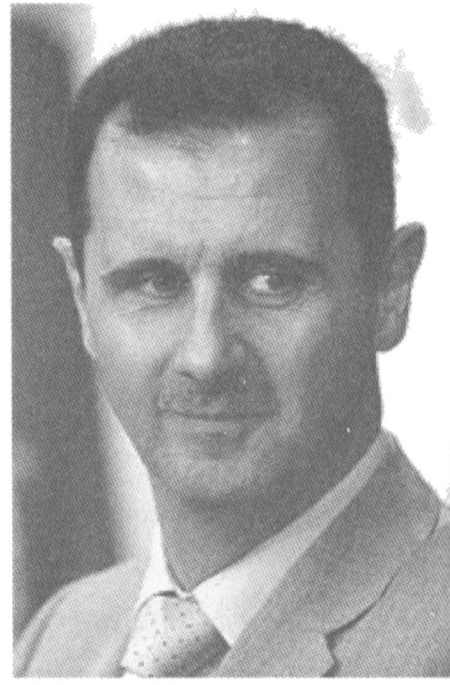

كلّ ساعتين يبدأ الحارس الجديد بطرق أبواب الزنزانات طالباً جواب السجناء ليتأكّد من أنّ أحداً لم ينتحر خلال نوبة الحارس السابق ويتحمّل هو المسؤولية.

آخر ما أتذكّره عن الأسد الأب صورته وهو يصلّي في الجامع الأموي. عجبت من نحوله وبياض وجهه، كأنّ قوّة ما، ربما هي علقة السلطة امتصته من

مكتبة الفكر الجديد

داخله، وتحدّب ظهره بثقل ما رآه وما فعله. زاغت عيناه قبل أن يسجد رافعاً كفّين مرتخيتين كأنّه رأى شبحاً ما قبالته... في نهاية الصلاة مسح وجهه وأمسك بيد الشيخ أحمد كفتارو وسارا على بلاط الجامع بخطوات بطيئة دونما كلمات.

الابن وشبح الوالد

لم أعرف بشّار و لم أتعرّف عليه عبر الإعلام خلال الـ١٣ عاماً من حياتي في سوريا ولبنان، لكن الولع بدمشق القديمة جمعنا معاً حتى وإن لم نلتقي في أزقّتها ومقاهيها وباحات بيوتها. كنت أقطع تلك الأزقّة الضيّقة التي تبدأ من وراء سينما الحمراء وتنفتح بساحة المرجة، ثم تنغلق ثانية من وراء الجامع الأموي وصولاً إلى باب توما. تتساند البيوت بأبوابها المنخفضة وتتقابل المشربيات فوق رأسي تُقبّل بعضها كأنها اندفعت بلهفة ساكنيها. في الربيع تلاحقني رائحة الياسمين فأدخل البيوت أحياناً لأرى العرائش وقد كلّلت بحرات البيوت. كل ما في هذه الأزقّة يذكّرني ببغداد القديمة التي لن أراها إلّا بعد سنوات. قبل تسلّمه للسلطة كان بشّار يتبعني مقوداً برائحة الياسمين عبر نفس الأزقّة ويلتقي في مقاهيها الفنّانين الذين كنت أعرفهم متجّنباً صحبة العسكريّين الذين عرفهم والده.

كان عمر الابن بشّار الأسد خمس سنوات حين استلم والده السلطة في سوريا. وعلى عكس إخوته باسل وماهر وشقيقته بشرى لم يهتّم بشّار قبل "تسلّم الراية من والده" بالسياسة. وحسب ادّعائه "لم يزر مكتب والده إلا مرّة واحدة، و لم يتحدث معه في السياسة". لم يسأل الوالد أبداً ما الذي صحّح في "ثورته التصحيحيّة" وما الذي حصل للمخطئين الذين

مكتبة الفكر الجديد

(صحّحهم) الوالد، إنما عرف مثل الكثير من أبناء جيله بأنّ ما فعله الوالد هو عين الصواب وإنّ السلطة قدره.

على عكس ابن الرئيس العراقي لم يتجوّل بشّار في الشوارع مع نمر مربوط بسلسلة، و لم يظهر على التلفزيون مع سيجار أو ببدلة طيّار مقلّمة. لم تكن لديه قبل صعوده للسلطة نزعة استعراضية، فقد اختفى خلف صورة والده و لم يظهر للحياة العامّة إلّا في فترة لاحقة بصفته رئيساً للجمعية المعلوماتية التي فتحت للشباب السوري عالم الإنترنت وتحكّمت به. وقد عشت في سوريا شهراً واحداً حينما دخل بشّار مكتب والده للمرّة الثانية ليجلس على نفس الكرسي الذي طالما خاف منه وتجنّبه.

جيلان وثقافتان

حين رأيت صورته لأوّل مرّة بحثت عن عناصر الشبه مع والده في طول القامة (١٩٠سنتمتراً)، وتسطّح مؤخرة الرأس وبروز الأذنين واستغربت من تهدّل يديه. لكن وعلى خلاف عناصر الشبه هناك اختلاف في الزمن والثقافة:

– ولد الابن في مدينة دمشق ونشأ فيها على خلاف والده الذي جاء من قرية.

– صعد في فترة سقطت فيها أنظمة الحزب الواحد في أوروبا الشرقية وأثّرت على عدد من الأنظمة العربية التي حاولت أن تُسابق الزمن ببدء تجارب برلمانية قامت

مكتبة الفكر الجديد

على تعدّد الأحزاب، بما في ذلك أحزاب المعارضة التي خرجت من أوكارها إلى رحابة البرلمان.

– على خلاف البداية العسكريّة للوالد بدأ الابن مدنيّاً حيث درس الطبّ في (جامعة دمشق) وتخرّج طبيباً.

– لم يكن الابن حتى قبيل تسلّمه السلطة بعثيّاً و لم يحضر اجتماعات حزبيّة، بل وحتى لم يكن ناشطاً في المنظّمات (المدنّية) التابعة للحزب.

– لم يعرف الانقلابات والانقلابات المضادة التي عاشها أو شارك فيها والده، بل عرف السلطة قدر والده وكلّ من حوله مجرّد أتباع.

مكتبة الفكر الجديد

– على خلاف ذلك عرف بشّار التجربة الديمقراطية من خلال دراسته في لندن وزواجه من إنجليزية سوريّة الأصل.

أول إشارة إلى السلطة تلقّاها حين كان في الثامنة والعشرين من عمره خلال دراسته التطبيقية في Western Eye Hospital, part of St. Mary's Hospital في لندن. ففي لحظة ما بعد الساعة السابعة من مساء يوم ٢٧ كانون ثاني ١٩٩٤ رنّ التلفون في شقّته بلندن وتلقّى خبر مقتل شقيقه باسل في حادث اصطدام سيارته في طريق المطار الغارق في الضباب. المتحدّث الذي أبلغه بالخبر الفاجع نقل له أمر الوالد "إحضَر فوراً!".

الضباب الذي كان وراء مقتل الابن خيّم على الوالد. لم يرَ بشّار والده بمثل ذاك الهزال والضعف، مطرقاً يستقبل المعزّين ويودّعهم وكأنه لا يراهم ويتمتم بأقلّ ما يمكن من الكلمات وهو يغصّ بصوته. لم يفقد الأب إبناً فقط، إنما فَقَد قبل ذلك وريثاً لسلطته. لكن الوالد استجمع كلّ حرصه على السلطة ليرفع رأسه ويهمس لبشّار كي يعدّ نفسه.

صناعة الإبن

بعد مقتل باسل وقبيل وفاته العام ٢٠٠٠ بدأ الأب يستنسخ الابن الثاني بشّار على صورته وهو يُعدّه خليفة له.أدخله الحزب قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وأدخله العام ١٩٩٤ أكاديميّة حمص العسكريّة ليحصل لاحقاً على رتبة رائد يستلم نسخاً من التقارير الأمنية الحسّاسة التي تُرفع للوالد. ولكي يصبح مألوفاً للناس افتتح، كمستشار لوالده، مكتباً خاصّاً لمتابعة شكاوى المواطنين وقاد أوّل حملة ضدّ الفساد.

مكتبة الفكر الجديد

كان لبنان هو الساحة والحقل لتعليم الابن على السياسة بالملموس.. ففي لبنان الخارج من حرب أهليّة إلى أخرى على حافتها لا تمتلك القوى الفاعلة الأفكار وحدها، إنما السلاح والمسلّحين. وهناك تمتلك كل الدول الإقليميّة سفاراتها المعلنة والسريّة على شكل مخابرات وقوى داخلية موّيدة لها تستخدم كواتم الصوت أو السيارات المفخّخة لتصفية المعارضين.. في لبنان تعلّم الابن كيف يتعامل مع الطوارىء كقاعدة، وكيف يقتل القتيل ويسير في جنازته. حين استلم الابن ملفّ لبنان وجد أمامه قياديين سوريين أحدهما يحرّك السياسة من فوق، هو الكادر القديم عبد الحليم خدّام، الذي يغلب قوى ضد أخرى ليبقي سوريا في الميدان حكماً وحاكماً، والثاني (علي دوبه) الذي يحرّك الأمن من خلال تمويل قوى خفيّة تنفّذ المعارك الخفيّة والاغتيالات. على طريقة والده بدأ الابن ينقلب على الكبار فيزيحهم واحداً بعد آخر، وقد بدأ بانتزاع ملفّ لبنان من عبد الحليم خدام، وتخلّص من رئيس المخابرات العسكرية علي دوبه، ثم من رئيس أركان الجيش حكمت الشهابي بحجة تقدّمه في السن، ومن رئيس أركان سلاح الطيران محمد خولي. وعمليّاً طُبّقت شعارات الإصلاح بالتخلّص من كلّ من أبدى تحفّظاً على صعوده المبرمج، وفي الوقت ذاته عمل على جمع "حرس خاص" حوله انطلاقاً من ثلاثة معايير: الوفاء لآل الأسد، والانتماء إلى الطّائفة العلوية، والدعم غير المشروط لطموحاته.

حين رحل الوالد العام ٢٠٠٠ حلّ في الشارع فزع غريب من احتمالات الصراع بين الحرس القديم في الحزب، بينهم وبين الحرس-في الجيش، بين الاثنين والعائلة، بين الأبناء والعّم رفعت الأسد الذي كان يستعد للعودة موقظاً سرايا الدفاع المخيفة. لم يدم الأمر طويلاً، فقد رتّبت الأمور قبل رحيل الأب وبحضوره الشبحي المهيمن بحيث استلم الابن منذ البداية قيادة الحزب والجيش.

مكتبة الفكر الجديد

لم ينقلب الابن كما الأب على أحد إنّما انقلب على الدستور الذي يشترط أن يكون الحدّ الأدنى لعمر الرئيس ٤٠ عاماً حين صوّت مجلس الشعب في جلسة الرعب على تغيير الدستور، ثم صوّت الشعب بتلك النسبة المألوفة لدى كل الدكتاتوريين العرب (٩٧,٢٪) وبذلك دشّن بشّار وهو في الـ٣٤ من عمره أوّل تجربة وراثة في الأنظمة الجمهوريّة العربيّة وفتح الباب لصعود جمال مبارك في مصر وسيف الإسلام القذافي في ليبيا وقصي صدام حسين في العراق.

البديل المثيل

في بداية رئاسته كنت أحاول أن أجد تاريخاً جديداً لسوريا أكثر انفتاحاً بمجيء الابن وأسال المثقّفين الذين أعرفهم عمّا إذا لمسوا بعض التغييرات بعد مجيء الابن.

كانت أجوبتهم تتراوح بين الاستبشار والتحفّظ:

مكتبة الفكر الجديد

– طبعاً، فخطاب الابن أبعد من خطاب الحزب الواحد.

– يعرف تغّير الزمن بعد والده ولذلك يركّز على الديمقراطية.

– يكفي أنّه أزاح الكثير من صور وتماثيل والده.

– مشكلته تكمن بالحرس القديم الذي يحيط به.

– يريد أن يغيّر بدون تغيير.

في أول خطاب ألقاه بعد تولّيه الرئاسة سمع السوريون المتعطّشون للحريّة مفردات جديدة عن "قوى الشباب المبدعة" والحداثة والإصلاح. من المنصّة نظر إلى وجوه الحاضرين من الحرس القديم، جمع كلماته بصعوبة وبدأ أوّل حديث عن الديمقراطية كـ"أداة لتطوير الحياة في سوريا نحو الأحسن" قالها عابراً بتحفّظ وارتباك ليجسّ نبض الحاضرين. لم يدرك إنّ هذه الكلمات المتحفّظة ستفتح باب السجن الكبير للحراك الديمقراطي مع انطلاق "ربيع" دمشق على يد ٩٩ مثقّفاً سوريًّا تحوّلوا بسرعة إلى ألف، وطالبوا الرئيس الجديد برفع حالة الطوارئ وتحرير المعتقلين السياسيّين وإحلال تعدّدية سياسيّة وفكريّة واحترام الحريّات العامة.

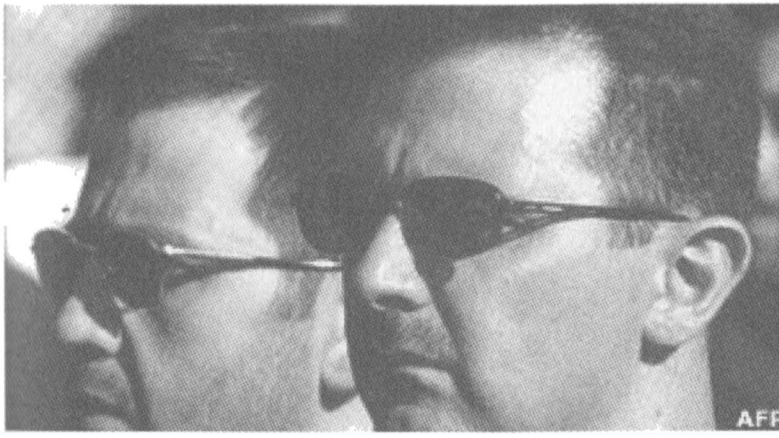

مكتبة الفكر الجديد

وفي خطوة للخلاص من شبح الوالد أصدر أمراً بتقليص صور والده التي تلاحقه كما لاحقتني وأنا أتجوّل في شوارع دمشق القديمة.

كان البعثيون ينكرون بإصرار وجود سجناء سياسيين، لكنّ الابن وهو يدير لوالده مكتباً لشكاوى المواطنين يلتقي بين فترة وأخرى نساء نحيلات أضناهن السهر قلقاً على مصير الأبناء، يتوسّلنه ليعرفن ما الذي حدث لأبنائهن الذين اختفوا منذ سنوات. يسمع التوسّلات ويهزّ رأسه بصمت ويودّعهن بوعود مبهمة. عند تسلّمه السلطة بدأ بإطلاق سراح مئات المساجين السياسيّين الذين خرجوا من زنزاناتهم وهم غير واثقين من فضاء الحريّة الذي بدا أقرب إلى الوهم بعد أن ترسّخت جدران الزنزانة في أعماقهم.

شبح الوالد فوق سور دمشق

منذ البداية أدرك الابن استحالة ما يفعله، فقد رحل الأب و لم يرحل، إنما ازداد حضوره في الغياب كما هو الأمر مع هاملت ووالده الراحل، فبشّار الذي استلم الرئاسة وهو في الـ٣٤ وجد نفسه وهو في قصر والده محاطاً بهذا الماضي الذي لا يريد أن يمضي. كان شبح الأب يطوف فوق أسوار دمشق القديمة يراقب ما يجري من حراك بصفته "مهزلة". لم يكن حضوره مقتصراً على الصور والتماثيل، إنما التقاليد التي ترسّخت خلال ٣٧ عاماً من حكم البعث ومنها ٣٠ عاماً من حكم الأب. فقد بقي الحزب مسيطراً على الحياة السياسية والبرلمان بصفته الدستورية الحزب القائد. الدولة الأمنيّة التي علّمت المواطن بأنّ المخبر الحقيقي والمخبر المفترض موجودان في كل مكان ومن الممكن أن يكون أحدهما ابنه أو جاره، أي إنهما موجودان فيه.

مكتبة الفكر الجديد

العالم السرّي يحيط بناس يعرفون أنّ سوريا صارت بلداً نفطياً، ولكن ما من أحد يعرف كم هي مداخيل النفط وأين تذهب. الفساد يشمل أعلى المراتب وأدناها وقد سمّاه صادق جلال العظم ساخراً (إعادة توزيع الدخل).

أراد الابن في أوّل الأمر أن يبدو مختلفاً عن والده. ففي أوّل خطوة، وجد الابن نفسه محاطاً ببطانة الوالد من الحرس القديم الذين ينظرون له كشاب غرّ وحالم، ولذلك لا بدّ مع قليل من المماشاة من إعادته في النهاية إلى الطريق الصواب، أي طريق الوالد.

صور الوالد بقيت كما هي مع قليل من الخطوات الرمزية لأن أحداً لم يجرؤ على أن يمزّق صورة الأب الذي انغرس في تلافيف السلطة التي صنعها وصنع نفسه فيها. خارج صوره كان الأب مغروساً في لاوعي أجيال تربّت على تقاليد عبادة القائد فكانت تهتف باسمه مع بداية اليوم الدراسي، في التدريبات العسكرية، في المسيرات... جهاز التملّق القديم قلب المعادلة فصار ينشر صور الابن إلى جانب صور الوالد. لم يعترض الابن حين رأى صورته مكبّرة على أحد الجدران وأمامه عبارة "سوريا الله يحميها".

الأب بنى الأجهزة بشكل متواز بحيث يراقب كّل جهاز الجهاز الآخر وهو يراقب المواطنين فينطبق عليها وصف الجاحظ لصاحب السلطان "كراكب الأسد، يخيف الناس به وهو أشدّهم خوفاً منه". كانت هذه الأجهزة تغّذيه كلّ يوم بالمخاوف من الأخطار الحقيقية والمختلقة، لذلك استدرك في خطاباته التالية عن الديمقراطية قائلاً: "مطلوبة، لكنها تحتاج إلى وقت، ولا يمكن تقديمها جرعة واحدة". كانت هذه الأجهزة تشكّل سلطة داخل السلطة وتتغذى من جوعها لمزيد من السلطة. لم تتقلّص هذه الأجهزة

مكتبة الفكر الجديد

و لم تتوقّف عند وعود الديمقراطية، فبعد أقلّ من عام صرخ الأب في غيبته بصوت الابن "كفى!".

وجاء ردّ نظام الأسد الجديد القديم على هذه التحّركات على النحو التالي: فرض قوانين على المنتديات مشابهة لتلك التي تتحكم في حقّ التجمع في الأماكن العامة، ورفع حصانة النائبين سيف ومأمون الحمصي والحكم عليهما بالسجن خمس سنوات، في حين حُكم على عارف دليلة بالسجن عشر سنوات وأقيل رئيس تحرير جريدة تشرين محمود سلام من منصبه الإعلامي. عادت الاعتقالات الى سجون أكثر حداثة من سجن المزّة القديم.

القتـــل الجماعـــي

وأنا أسير في شوارع بغداد اليوم بعد ٢٢ عاماً من فراق دمشق ينبّهني هاتفي النقّال كلّ ساعة إلى خبر من دمشق: ستة قتلى اليوم برصاص الأمن السوري معظمهم بحمص، عشرة قتلى عند جامع الحنابله، العثور على ١٦ جثة عليها آثار تعذيب وسط مدينة إدلب، الأمن والشبيحة أعدموا ١٤ شخصاً في كرم الزيتون، استهداف المتظاهرين بالقنابل، ١٥ قتيلا وعشرات الجرحى بقصف عنيف على عين لازور في إدلب، ٧٠ قتيلاً على الأقلّ بينهم ١٥ طفلا، ٩٦ قتيلاً بسوريا اليوم... تتصاعد الأرقام: ١٠٥ قتلى بسوريا اليوم بينهم ٥٢ بمجزرة حمص... تتوالى العناوين كما الرصاص فلا تترك مجالاً للتخيّل.الاختصار يحيلني للمنفّذ وليس للضحيّة، كما هي الأوامر الصادرة من غرف العمليّات. من خيالي أعطي للأرقام التفاصيل

مكتبة الفكر الجديد

وأنا أدرك أنّ وراء كلّ قتيل حكاية أمّ وأبناء وصورة على جدار. أتابع أخبار الموت وأسأل نفسي مُنحّياً منطق السلطة: كيف يمكن لهذا الشاب الذي تعلّم في أفضل الجامعات والذي يجيد الفرنسية والإنجليزية أن يتمرّن على الموت ويراه مجرّد أرقام. أجاوب نفسي بأنّ آلاف الجثث مرّت به بالتأكيد خلال تجواله طبيباً مناوباً في مستشفى تشرين العسكري. لم يسأل أبداً كيف ماتوا، لأنّ أحداً لن يجرؤ ويقول له ذات يوم عن واحداً منهم مات "في سجون والدك"... كنت أعرف أنّ من يصنع الموت يحتاج لأن يكسر التردّد ويبدأ الخطوة الأولى، وكان التمرين الأوّل في لبنان في ذلك التفجير المروّع الذي أودى بحياة الحريري، وبعده مباشرة انتحر المدبّر والمسؤول الأمني عن ملفّ لبنان (غازي كنعان) بالتعبير السوري الساخر "بست طلقات في الظهر!!!".

في التلفزيون، تُريني الصور المهتزّة التي التقطها آخر الأحياء الذين تَبقّوا في حي بابا عمرو بحمص، الدبابات تتقدّم نحو أزقّة مررت بها ذات يوم ، وأسمع أناساً يهتفون بعد كل قذيفة "الله أكبر!" وبعدها صراخ طفل... من الجانب الآخر أرى المشهد من كاميرا (المنتصر) وقد بثّها التلفزيون الرسمي. تتحرّك الكاميرا كأنّها تبحث عن كائن حي، لكن على امتداد الأزقّة فراغ موحش يدل على أشباح الغائبين. أين دكاكين الخضروات وأين البائع وهو يقلبها أمام المشتري ، أين بائع العرقسوس ورنين طاساته، رائحة التوابل غابت خلف رائحة الموت الخانقة، أين المقاهي التي تفوح منها رائحة الزهورات واليانسون؟ حتى القطط والكلاب السائبة فرّت من هذا الكابوس. لا شيء سوى الدمار وخيال المنتصر الذي يصوّر المشهد.

في اليوم نفسه رأيت بشّار الأسد بأناقته الكاملة يبتسم للكاميرا وهو

مكتبة الفكر الجديد

يضع في الصندوق ورقة التصويت على الدستور الجديد "نعم ٩٧٪" وخلفه بخطوتين زوجته أسما. لم أفهم التناقض بين ابتسامتها الميتة وبين الحيرة في عينيها. كانا ينظران باتجاهين مختلفين. لقد رأى المشاهدالصورة التي رأيتها لحيّ بابا عمرو، لكن هل حَلُم بما حلمت به تلك الليلة. فقد رأيت نفسي في الكابوس، أنا أرى وفي الوقت نفسه أشاهد نفسي وأنا أتجوّل وأحذّر ذاتي كلّما توغّلت: حذار، فأعصابك لن تتحمّل المشهد التالي! أتجوّل في ذات الأزقّة وأرتجف من البرد في عظامي، تائهاً لا أجد من أساله: أهناك من مخرج؟

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

صدّام حسين: المُخرج والصورة

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

في آذار ١٩٧٩، وفي مصيف صلاح الدين التقيت الرجل الذي صنع كوابيس حياتي وحياة أهلي وأولادي لأوّل وآخر مرّة. كانت الثلوج تذوب بسرعة في قمم جبال كردستان وتجري المياه في النهيرات وأماكن السيول وتغطي السهول بزهور البابونج الصفراء، لكن لم يكن هناك فرح بعيد الربيع، إنّما الصمت يخيّم على المدن والقرى مع بدايات اندلاع قتال جديد.

كنت مع وفد صحفي لنغطّي احتفالات الأكراد بعيد الربيع (نوروز). في الصباح الباكر أخذونا من الفندق – الثكنة في أربيل إلى موقع الاحتفال الذي نجهله. لم نرَ على طول الطريق السهلي المتعرّج ثم الملتوي صعوداً إلى مصيف صلاح الدين أيّ علامة من علامات العيد. كنت أعرف ومعي عدد من الصحفيّين الأجانب أن البيشمركة في الجبال منعوا الاحتفالات حزناً على الزعيم البارزاني الذي توفّي في المنفى قبل أيام. لم نرَ العائلات التي يفترض أن تفترش التلال على جانبي الطريق ولا الملابس الكردية الملوّنة التي تنفرش على العشب ولا دبكات الشباب. ليس هناك على امتداد هذا الريف المتعرّج خيال لإنسان. لم نر خلال هذه الرحلة إلى مواقع الاحتفال غير فلاّح وحيد يقود حماره على عجل كأنّه يهرب من كارثة قادمة. كنت أعلم أنّ عملية إفراغ الأرض من ساكنيها بعد هزيمة البارزانيّين قد بدأت بالتطبيق، وحلّت الثكنات والربايا محل القرى ومزّقت الأسلاك الشائكة أوصال الريف الأخضر المزروع بالألغام.

مكتبة الفكر الجديد

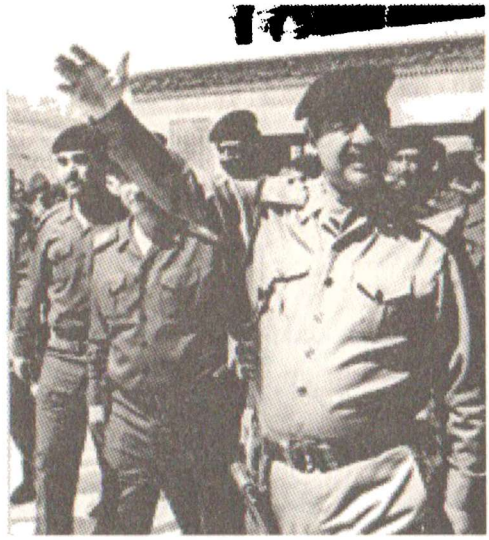

في فندق صلاح الدين كنّا نتناول الطعام على عجل قبل الذهاب لساحة الاحتفال. إلى جوارنا مائدة محجوزة لوفد على مستوى عالٍ لا نعرفه ولا أحد يعرفه. قطعنا طعامنا حينما سمعنا تصفيقاً ثم دخل صدام حسين بلحمه ودمه وحمايته. إذاً كانت الهليكوبتر التي سمعنا دويّها قبل قليل تقله. لا بدّ أنه، وهو المسؤول الأوّل عن حرب الشمال، رأى من فوق تلك الحقول الموحشة التي رأيناها قبله، هذه الوحشة من إنجازه.

مكتبة الفكر الجديد

وسط طوق الحماية تتحرّك يداه إلى الجانبين بحيث يشغل أوسع فراغ ممكن بينه وبين أقرب حراسه إليه. حركة الحماية المتقاطعة السريعة خلقت ارتباكاً داخل القاعة . الحماية الدقيقة لا تستعيض عن الخوف بالعادة. هذا الرجل الذي مارس الاغتيال بنفسه وحاك الدسائس ضدّ منافسيه يعرف حجم الخطر الذي يحيط به. هالني في وجهه شحوب لا نراه في الصور ولا في التلفزيون، شحوب رجل ميت أو موشك على الموت. وهو يمرّ وسط صفّين من الصحفيين، لم أرَ ذاك الاعتداد الذي يميّز الزعماء الممتلئين بذواتهم وقوّتهم. فقد رمشت عيناه مرّات أمام نظرات الصحفيين القريبة المستفسرة.

أكل من طبق مفروز لا يمت للمائدة المعدّة له، طبق أعدّته له الحماية. من دون أن أدري علقت عيناي بأصابعه الدقيقة الشاحبة وهو يقطع اللحم بالسكين.. بهذه اليد، قلت لنفسي، وقّع أمراً بإعدام عشرة شيوعيّين ووقّع أمراً بالبدء بالجزء الثاني من الحملة في كردستان. أنظر إلى الحافة بين كمّ قميصه وأتخيّل الشعر سينمو بسرعة خارجاً من تحت القميص ليغطّي اليد الممسكة بالسكين، ومن تحت ياقته سينمو شعر رمادي أشعث ليغطّي الوجه المتهيّئ للحديث. ثم سيرفع رأسه فوقنا جميعاً ويعوي وقد استذأب أمام أعيننا جميعاً، وسيعوي معه كلّ أفراد حمايته داخل القاعة وخارجها، وربّما سنعوي نحن الشهود معه وقد تملّكتنا غريزة القطيع. في فترة صمت قصيرة خيّل إليّ أنّ هذا الصوت الحبيس في داخلي سينفجر: أتدري ما تفعله هذه الأيام في أقبية التعذيب؟ سيسألني أن أخبره بتحدّ غاضب وسأقرأ له شهادات التعذيب التي سجّلتها قبل أيام:

ف م: بحبل مشدود إلى عتله رفعوني قليلاً عن الأرض وأنا شبه عارية، ثم بدأوا الجلد على القدمين بقوّة وتوتّر حتى تُدمى راحة القدم وتنفث

مكتبة الفكر الجديد

الجراح ريحاً حارة. حين يأخذ الألم قراره يتوقّفون ويضعون القدمين في ماء دافئ فيتسرّب الخدر الذي يتبع زوال الألم.. آنذاك يجدّدون الجلد بقوّة أكبر. كنت أسمع صوت لهاثهم من التعب ومع ذلك يستمرّون... يتضاعف الألم في المرّة الثانية والثالثة كأنّ العصا تمسّ القلب والدماغ.

يبدأ التحقيق ثانية بعد الجلد، كنت ممزّقة وشبه عارية ومعصوبة العينين بين أربعة محققين انتشروا في الغرفة. قبل أن أكمل الجواب على السؤال الأوّل يقاطعني الثاني فالثالث ثم الرابع. لا ينتظرون أجوبة ومعلومات، إنما يفعلون ذلك في نوع من التسلية والعبث. خلال الفترة بين سؤال وسؤال أسمع أصواتاً مدرسة: صوت سكين يحد، عظم يتكسّر، صوت رجل يصرخ كالذبيح، وامراة تتأوّه..توسلتهم أن يوقفوا هذه الأصوات قبل أن أعرف أنّها تنبعث من جهاز تسجيل.

أخذوني عبر سلسلة من غرف وأنا مبلولة عارية ومدماة. سمعت

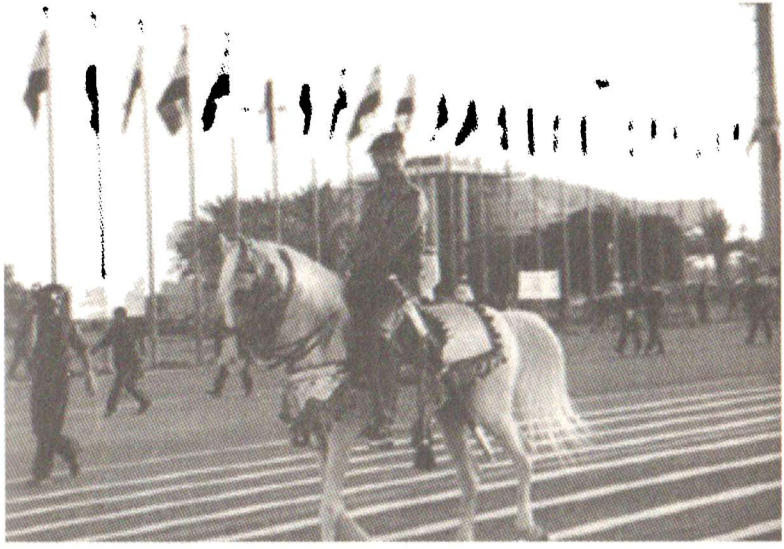

مكتبة الفكر الجديد

صوت ضربات على الآلة الطابعة ومسّ أنفي رائحة عطر نسائي، وقدّرت أنّ ضاربة الطابعة ستتوقّف حين تراني، لكنها استمرّت بلا انقطاع.

ع ح:أدخلوا قضيباً في شرجي ووضعوا في غرفتي شريطاً مسجلاً يبثّ طوال اليوم صرخات زوجتي في زنزانة أخرى.

د م: لم يعذّبوني ولم يضربوني، لكنّهم فعلوا ما هو أسوأ.. لشهر كامل أبقوني معصوب العينين وسط صمت مطبق. كنت أعيش على أبسط الأصوات... بعد صمت طويل ومتقصّد أسمع حفيف تقليب أوراق جريدة.إذاً في الغرفة إنسان. أسعل متعمّداً وأتزحزح في مكاني علّ هذا الإنسان يخرج من صمته ويتحدّث، حتى ولو يشتمني!... أحياناً يرنّ التلفون في الغرفة بتكرار من دون أن يجيب أحد، ثم تُرفع السماعة فتأهّب أذناي لسماع حديث، لكنّ يداً ما ترفع السماعة وتغلقها. ذات يوم تجرّأت وسألت: أنت يا من هناك. فجاءتني صفعة أدارت رأسي.

أحدهم اقترب منيّ وسألني: أنت طبيب وتعرف الجنس، ما هي أفضل الطرق لممارسته. غيّرت الموضوع وبدأت الحديث عن الطب. بعد فترة طويلة اكتشفت أن مستمعي غادر الغرفة قبل فترة وكنت أتحدّث إلى نفسي.

م ن: أسوأ ما واجهناه الإذلال والوحشة كوني عارية، عيناي معصوبتان، وحيدة بين جوقة من وحوش يتعاملون معنا بإذلال. عن رائحتنا النتنة، بالعصا يتلمّسون أعضاءنا التناسلية ويسألون رجلاً آخر: في تصوّرك كم من الرجال ناموا معها؟

مكتبة الفكر الجديد

ف م: نظريّة الوجوه التي كنّا نبني تصوّراتنا من خلالها عن الناس سقطت يا عزيزي زهير، فقد رأيت جلّادين بوجوه جميلة ووادعة كوجوه الأطفال، لكنّهم أقسى من أقسى الوحوش. الوحوش لا تعذّب فريستها إنما تقتلها لتأكلها.. الذين رأيتهم يمارسون التعذيب والإذلال مثل أيّ هواية...

الصورة والأصل

أسترجع كلّ شهادات الألم هذه وأنا أراقب اليد التي تغرف الطعام أمامنا بارتباك، تتحرّك بمعزل عن صاحبها وهو يتحدّث إلى الوزير بجانبه. كلّ حركة فيه تخفي أكثر ممّا تفصح. تكلّم قبل كلّ شيء عن التباطؤ في الخدمات البلدية، أحالها إلى توجيه الميزانية للمشاريع الكبرى. بدا لي صوته الذي يجرح الحنجرة والأذن نوعاً من العبث بالكلمات لإخفاء ما ينبغي قوله. كذلك تقول الشّفّة المتهدّلة التي تتساقط منها الكلمات. أنظر إليه وأستمع اليه وهو يتحدّث من دون أن أسجّل أقواله كما فعل الباقون. لم أفعل ذلك لسبب بسيط هو أنّ الجريدة التي كنت أعمل فيها أغلقت بقرار منه.

تغيّر الحديث بقدرة قادر إلى الموضوع الذي يستهويه، عن الكاميرا التلفزيونيّة وكيف تابعت رحلته إلى الأهوار. تحدّث بفرح طفولي بصفته المخرج والبطل. كان ساخطاً على ماء الهور الذي يهزّ الزورق والمشهد والكاميرا وعلى المصوّرين الذين رافقوه لأنّهم عجزوا عن التقاط أكثر اللحظات تعبيراً عند احتفاء الناس به في تلك القرى النائية. كنت قبل ذلك قد تابعت التغطية المطوّلة لزيارته هذه للأهوار وعجبت من قدراته الاستعراضية مرتدياً غترة الفلاحين وهو يتحدّث لمواطنين لم يروا من قبل مسؤولاً بمستوى محافظ. كما تابعت زياراته للمدارس ليوزّع الحليب بنفسه على الأطفال، أو دخوله بيوت المواطنين لِتَفقُّد الموجود والمفقود في

مكتبة الفكر الجديد

براداتهم. تابعت ذلك محاولاً الوصول إلى البعد الثالث للصورة، وإلى القصد المختفي وراءها. الصورة هنا لا تعكس موضوعها إنما تتقدّمه وتصنعه.

على خلاف رئيسه البكر أبدى صدّام في تلك الفترة التي شهدت صعوده إلى الموقع الأوّل اهتماماً مشدداً بالعلاقة بين الصورة والسلطة. وما كان بحاجة لدراسة تشريح الصورة لمعرفة مدى تأثيرها على الجمهور، تكفيه السليقة لمعرفة المزاج شبه الفلاحي الذي يقيس به الأمور من مظهرها الخارجي. بمظهره الكدر الكئيب كره البكر الظهور في الصور وكان ينظر للمصورين بامتعاض لان عينيه لا تتحملان الإضاءة الحادّة ولأن الكاميرات تربكه. وإذا كان ولا بدّ فإنّه يفضل أن تظهر صورته الجانبية خلال الحديث مع مقابليه... كانت توجيهات صدّام من خلال مكتب الإعلام تؤكّد على وضع صورة البكر على اليمين وصورته على اليسار بحجم وارتفاع متساويين للدلالة على شراكة الاثنين... وإذا كانت صورة الأوّل قد بقيت معلّقة بقرار من صدّام كتقدير معنوي لرجل سلّم سلطته بهدوء، إلّا أن هذه

مكتبة الفكر الجديد

الصورة اختفت بقرار آخر للتدليل على سلطة رجل واحد.. وقد روى لي موظّف في دائرة رسميّة الطريقة التي أزيلت فيها صور البكر (كنّا نعرف بأنّ هناك قراراً برفع صورة البكر، ولكن الأمور تمّت بتدرّج سرّي.. ففي كل يوم نعود إلى الدائرة لنجد واحدة من صور البكر اختفت من إحدى الغرف).. بنفس الطريقة المتدرّجة الهادئة أزيحت من مواقع القرار، وأحياناً من الحياة العناصر المحسوبة على البكر في الجيش والدولة. وفي بداية رئاسته بقيت صورة النائب باللّباس المدني.. مع إزاحة العناصر المحسوبة على البكر استبدلت الصورة ذات اللونين الأسود والأبيض بصورته الملوّنة وهو بملابس عسكرّية واضعاً يده على مقبض السيف.

المخـرج والبطـل

رغم مهامه الكثيرة كرئيس للدولة والحزب حرص صدام على متابعة الصور والأشرطة الوثائقية التي ستظهر في أجهزة الإعلام. والحقيقة أنّ كلمة متابعة قاصرة عن وصف العملية التي يتّم بها الإخراج على طريقة الأفلام الروائية. وقد روى المخرج المصري توفيق صالح ما حدث خلال إخراج فيلم (الأيام الطويّة) عن رواية لعبد الأمير معله. الرواية والفيلم عن دور صدّام حسين في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وهروب صدّام إلى سوريا سباحة ثم على ظهر حصان. كنت قد

مكتبة الفكر الجديد

تابعت الواقعة في مذكّرات كل من أياد سعيد ثابت وفؤاد الركابي وعرفت أنّ دور صدّام كان ثانوياً هو حماية المتراجعين بعد التنفيذ، بل إن فؤاد الركابي لم يتذكّر اسمه في روايته للحدث إنما تذكّر "شاب من تكريت"، لكن الرواية والفيلم وضعاه في مركز الحدث بحيث تحوّلت الشخصيات الأخرى إلى ظلال باهتة. عرضت النسخة الأولى من الفيلم على (الرقيب الأول) صدّام حسين. لم يشبع غروره التركيز عليه بالذات بين مجموعة الاغتيال وهو يطلق النار، ولا حرصه على أن يحرق أوراق الحزب قبل الهروب، ولا الصورة الملحمية لعبور النهر وخيلائه كخيّال على حصان يشق الصحارى، إنما استوقفه تعبير إنساني عن الألم عند استخراج الرصاصة من ساقه. ولذلك استدعى المخرج ليريه حقيقة أخرى مختلفة عن الفيلم وكان مع صدام في هذا اللقاء الطبيب تحسين معله الذي أجرى عملية استخراج الرصاصة، أحضره ليخبر المخرج بأنّ تعابير الألم التي بدت على صدّام في الفيلم (غير واقعية) بغض النظر عن إنسانية اللقطة. قال له الطبيب إن صدّام أخذ منه السكين عندما أبدى تردّداً في إجراء العملية بلا بنج، وقطع موقع الجرح واستخرج الرصاصة بنفسه بدون أن يبدي نأمة ألم.. "هكذا هو الواقع إذا أردت أن تكون واقعياً!" كانت هذه كلمة صدّام للمخرج، وعلى ضوء ذلك أعيد تصوير المشهد. فالتعبير عن الألم يخلّ بالصورة النموذجية للبطولة كما يراها ابن الريف.

هناك من يرسم مسبقاً صورة نمطية لبطل شعبي، ويحدث عند تجسيد هذه الصورة تواطؤ وضغط متبادل بين من يرسم الشخصية ويجسّدها وبين الجمهور الذي سيشاهدها. كلّ الخيال المتجمّع من تقاليد الرضوخ القبلية والعائلية والدينية ستتدخّل لصناعة البطل الذي ينبغي أن يكون المعادل الموضوعي لضعف الجماعة والأفراد فيها. ولذلك تحتّم عليه وهو يدخل

مكتبة الفكر الجديد

دور البطل أن يأخذ أولاً حاجة مشاهديه قبل أن يطابق الشخصيّة مع ذاته. وسيحدث على مستوى التجسيد تداخل وتقاطع في رسم شخصية هذا البطل.. بين التصور الديني السامي وبين المثال الشعبوي الأرضي، بين المثال النيتشوي الذي يرى البطل حدث نفسه وصانع تأريخه وأحداثه الكبرى وبين التصّور الإجتماعي الذي يرى القائد ابن مجتمعه وأداة تأريخه.. وعلى المستوى السياسي يتداخل ويتقاطع التصوران القطريّ الشديد المحلية والمتكلّم باللهجة الدارجة مع الرمز القومي المتعالي على الخصوصّيات القطرية، البراغماتي الواقعي المرحلي والنمط التاريخي الذي لا يتصرف بوحي اللحظة، إنما يضحّي بالحاضر لصالح الرسالة التاريخية.. ويتجلى هذا التعارض من خلال أسلوبين في سلوك القائد مع حاشيته ومع جمهوره: الأسلوب الأول يفترض أنّ الجمهور مختلف ومتنوّع، ولذلك ينبغي للرمز الشعبوي أن يتوجّه لكل قطاع حسب حاجاته.. فللفلاحين الذين عاشوا حياتهم في الذلّ تحت جور الإقطاع والفقر والجهل سيبدو صدام واحداً منهم وقد علّقت صورته أمام الجمعيّات الفلاحيّة ممسكاً بالمسحاة مرتدياً دشداشة فلاح فقير. وللجنود المعزولين في جبهات الموت سيقدّم صدام مرتدياً خوذة مقاتل منهم. وفي مدخل الجامعة المستنصرية سيظهر مرتدياً الروب الجامعي، بينما تظهر صورته في مدخل مدينة النجف ممسكاً بشباك الضريح كأيّ زائر خاشع.

التقسيم السابق للاختصاصات في الدولة يضمحل بمقدار ما يغطّي المظهر المرئي على الإنجازات الحقيقية الملموسة، وتندمج الفواصل الفعلية في صورة رجل واحد صالح لكل الاختصاصات وفوق الاختصاصيين.

مكتبة الفكر الجديد

مجزرة في قاعة الخلد

في قاعة الخلد كنت أحضر الحفل الشهري للفرقة السمفونيّة العراقيّة.. هناك سمعت مقاطع من سمفونيات بتهوفن وتشايكوفسكي وكونتات باخ وريمنسكي كورساكوف، ورأيت فيها عروضاً للباليه العراقي وفرق أجنبية منها البولشوي. كنت مع أصدقائي ننتظر هذه المناسبة الشهرية بصبر فارغ ونلبس أفضل ما عندنا استعداداً لهذه المناسبة المهيبة، ونخرج من هذه العروض وقد امتلأت أرواحنا بعاطفة شفّافة لدرجة أنّنا، ونحن نقطع المسافة في الليل مشياً على الأقدام، نكفّ عن الحديث لنترك الحديث لداخلنا. ما من مرّة خرجنا منها من هذه القاعة إلا وتغيّر شيء فينا.

وقد شهدت هذه القاعة العديد من العروض المسرحيّة. واحد من هذه العروض خُصّص لمشاهد واحد هو صدّام حسين الذي تكرّم وجلب معه عدد من مريديه وكانت حمايته تقطع حاجز الوهم بين الممثّلين والجمهور. في هذه القاعة القريبة من القصر الجمهوري قدّم صدام حسين عرضاً دموياً غيّر طبيعة الحزب الذي يقود الدولة، غيّر الدولة وتغيّر هو نفسه، وانعكس هذا التغيير (بين الجبل والسفوح) على الدولة خلال العقدين القادمين اللذين سبقا السقوط.

في هذا العرض وفي هذه القاعة بالتحديد حسم صدّام بعد أن سلّمه الرئيس البكر (الراية والسيف) العلاقة بينه وبين رفاقه، حسمها بمذبحة في ١٧ تموز ١٩٧٩ بإعدام ربع أعضاء مجلس قيادة الثورة وثلث القيادة القطرية وعشرات الكوادر المتقدّمة.. فما الذي حدث في (ليلة السكاكين الطويلة) هذه؟ لم ترد الوقائع الحقيقية لما حدث في أيّ بيان رسمي، ولكن الرواية الحقيقيّة وردت في شريط فيديوعن اجتماع استثنائي للكادر القيادي في

مكتبة الفكر الجديد

الحزب. في هذا العرض الدامي ظهر صدام كقاض وحيد وسط المنصّة.. وفي طرفها الأيمن متّهم وشاهد هو عضو القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة (محي عبد الحسين) يعترف على شركاء في مؤامرة. لم يكن المتّهمون خمسة فقط، إنّما كلّ من في القاعة متّهم، قد يرد اسمه في أيّ لحظة خلال الاعترافات.. وعند ذلك سيدخل الحرس الخاص ليأخذوه إلى جدار الإعدام خارج القاعة، ولكن عليه قبل ذلك أن يردّد أمام الجميع قسم الحزب...

كنت قد رأيت نسخة باهته من هذا الفيلم الذي تسرّب إلى الخارج في بيت النائب اللبناني زاهر الخطيب... وبعد أكثر من عشر سنوات حصلت على نسخة أوضح وأنا أعد الفصول الختامية من كتابي (المستبد). استعدت

مكتبة الفكر الجديد

الفيلم مرات، مرّة أركز على صدّام وحده وألاحظ هذا الجمود القاطع على وجهه وهو يستمع ويدخّن على غير عادته بلا انقطاع. أتابعه وهو يوجّه صاحب الاعترافات من دون أن يلتفت أليه، أو وهو يأمر شخصا من القاعة بأن يغادر مردِّداً قسم الحزب.

في إعادة لاحقة أركّز على الكادر القيادي في الصف الأمامي (طارق عزيز، عزّت الدوري، جالسين بصمت تام وقد اصطكّت سيقانهم وتيبّست أجسامهم بحيث صاروا يستديرون بصعوبة ليروا مصدر النحيب والصراخ في الصفوف الخلفية وتقلّصت حجومهم بانتظار مفاجأة دامية وهم يرون رفاقهم يساقون إلى جدار الموت.

مكتبة الفكر الجديد

أحياناً أذهب إلى عمق الصورة لأتتبّع ذلك العصاب والهستيريا التي سيطرت على الكادر الأدنى في الصفوف الخلفيّة حين أخرج صدّام المنديل من جيبه ومسح دموعه. لمرّات عدّة أدخلت نفسي في مطبخ الرعب هذا وتلبّست تلك الأسئلة التي راودت الحاضرين: كيف تحوّلت سوريا التي كانت مرشّحة قبل يومين لوحدة اندماجية مع العراق إلى (جهة أجنبية) متآمرة؟ وكيف تحوّل قياديون مرموقون، بعضهم رشّحه صدّام بنفسه إلى خونة ومتآمرين؟ وكيف تمكّن من رشوة وزراء، تحت أيديهم ميزانيات بعشرات الملايين، بمبالغ لا تساوي مرتّبات مرافقيهم؟ وكيف يمكن لعبد الخالق السامرائي السجين منذ سبع سنوات أن يقود كلّ هذه المؤامرات من زنزانة محروسة جيّداً؟ ولِمَ يحدث كل هذا بعد يومين فقط من استلام صدّام للسلطة؟

الخوف المهيمن على القاعة حوّل كل هذه الأسئلة إلى صرخات

مكتبة الفكر الجديد

مزايدة تطالب (القاضي) بمزيد من الحسم مع المتّهمين. وبين المزايدين نائب الضابط (علي حسين المجيد) الذي صرخ بصوت مولول محذّراً القاضي من أنّ دابر التآمر لن يقطع مّا دام عبد الخالق السامرائي حيّاً يُرزق. كان الخوف هو الخميرة اللازمة لتحويل الخائفين إلى جلّادين. ففي نهاية (المحاكمة) وقف الشهود صفّاً واحداً وراء صدّام حسين مع رشّاشاتهم.. وبدأ القاضي بإطلاق الرصاصات الأولى (وهو يبكي). وبعده أطلق الإبنان (وكانا آنذاك في الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما، وبعد الوالد وولديه بدأ بقية القادة ورؤساء الفروع والشعب.. من كلّ واحد خمس رصاصات على جثث الرفاق الذين ماتوا قبل ذلك بالتعذيب. كانت هذه الممارسة هي الفرصة الوحيدة للمساواة بين الجميع: أن يشاركوا معاً في إعدام رفاقهم ولا يبقى بعد ذلك فاصل بين مذنب وبريء وسيّئ أو أسوأ.. وكانت هذه المشاركة بداية الإلغاء التدريجي للفاصل بين البعثي والجلّاد.

مكتبة الفكر الجديد

نرجع الآن إلى المحاكمة والى جوّ الخوف السائد في القاعة.. فالبعثي الذي حضر كشاهد تحوّل إلى متّهم من خلال تأكيد صدام على أنّ الخطر يأتي دائماً من داخل الحزب. وفي الاجتماع طرح السؤال: من أين تبدأ الخطوة الأولى نحو خيانة البعثي؟... قبل أن يجيب صدام على هذا السؤال ثبت أمام الجميع حقيقة جديدة ربما لم يعرفوها من قبل: ليست هناك مساواة مطلقة بين البعثيّين لأنّ هناك جبل وحيد، هو صدّام حسين، والبقية سفوح. والخطاب هنا موجّه للقياديّين الكبار أكثر ممّا للكوادر الوسطى. وقد تكون المساواة ممكنة بين السفوح، ولكن ليس بينها وبين الجبل. وتبدأ الخطوة الأولى نحو الخيانة بشعور البعثي بالضيم لأن رفيقه جبل.. ومن هنا يبدأ الطموح غير المشروع بمحاولة الوصول إلى القمّة. وفي هذا الجو الذي تحوّل

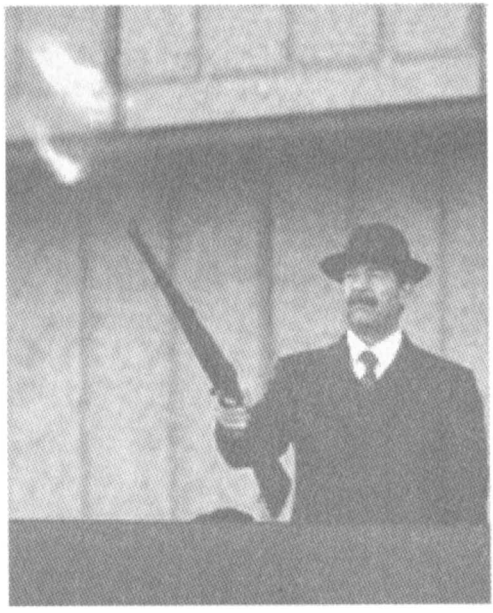

مكتبة الفكر الجديد

الخوف فيه إلى حماس ثبّت صدام المسافة بين (الرمز) وبقية القيادة: (ما ذنبي إذا كانت السفوح تريد موازاة القمة).

لم تقتصر هذه الاستعارات الرمزية حول الجبل والسفوح على انفعالات المحاكمة فقط، إنما ستتكرّس هذه المسافة لاحقاً في لغة التخاطب الرسميّة والحزبية بين القائد الرمز ورفاقه بمن فيهم أقرب نوّابه إليه.. فحلّت كلمة (سيّدي) محل (رفيق)، وحلّ الإذعان المبرمج محلّ الاحترام الرفاقي بين الجبل والسفوح. وفي الطقوس البروتوكولية أمام القائد لا يحقّ لأي من القادة الحاضرين أن يبدأ بتناول طعامه أو شرب شايه قبل أن يبدأ القائد، ولا يحق له الكلام بحضوره إلا حين يوجّه إليه السؤال.

تراتبيّاً صارت تفصل صدّام حسين عن أقرب نوّابه إليه المراتب الخمسة الأولى (رئيس مجلس قيادة الثورة، أمين سر القيادة القطرية، رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلّحة).. كلّها من حصّة (القائد). وليس لأي واحد يليه أي لقب خاص به، حتى ولا المنصب الرابع (رئيس الوزراء).. كلّهم يأخذون موقعهم الأوّل من نيابته فيتقدّم لقب النائب على ألقابهم الأخرى كأعضاء في مجلس قيادة الثورة، وفي القيادتين القومية والقطرية..

وقد عكست نتائج المؤتمر القطري التاسع تَشَدُّد قبضة صدام على قيادة الحزب. ستة أعضاء من القيادة القطريّة المنتخبة هم أصلاً نوّابه أما في مجلس قيادة الثورة أو في مجلس الوزراء، ستّة آخرون هم مستشاروه في أمور مختلفة، أربعة من أقارب الدرجة الأولى والثانية، وأربعة كانوا معه في جهاز حنين ومكتب العلاقات العامة... وباختصار ما من واحد صعد إلّا وله علاقة بواحدة من الكتل الأربع..

مكتبة الفكر الجديد

لتوسيع المسافة بين القمّة والسفوح نظّم صدّام حسين أواسط العام ١٩٨٨ برنامج إذلال للصفّ القيادي الذي يليه. فقد أبدى صدّام في إحدى خطبه امتعاضاً لأنّ بعض القادة كبرت كروشهم بشكل لا ينسجم مع الهيئة النموذجية للمناضل، ولا مع حملة ترشيق جهاز الدولة. وبعد أيام نشرت الصحف جدولاً بالزيادات في أوزان أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية. وبموجب الجدول كان صدام الوحيد بين القادة الذي يمثّل الرشاقة النموذجية: العمر ٥١ عاماً، الوزن ٧٧ كغم، الطول ١٧٨ سم، الزيادة في الوزن: لا توجد... وبعده يأتي عدنان خير الله طلفاح الذي لديه زيادة كيلوغرام واحد... وبعد نشر الجدول غاب الجميع عن أجهزة الإعلام مع إشاعات عن إقالات بالجملة. وفي حزيران ١٩٨٨ ظهر في الصحافة خبر يقول: (تنفيذاً لتوجيهات الرئيس القائد التي صدرت في العام الماضي والتي تحدّد مقاييس اللياقة البدنيّة للرفاق أعضاء مجلس قيادة الثورة وأعضاء القيادة القطرية والوزراء وحتى مرافق الرئيس)، فقد تخلّص الجميع من الوزن الزائد. وظهرت صورهم في الصحافة، ولكن من الصعب التعرّف على نواب الرئيس طه الجزراوي وطه محي الدين معروف بعد أن فقد كل واحد منهم ٢٥ كيلوغراماً خلال دورة الترشيق والتخويف في المعسكرات ليقتربوا من مقياس الرشاقة النموذجي للسّيد القائد. وقد شمل قرين التنحيف والإذعان معظم مدراء الدوائر وكوادر الحزب...وهناك توجيهات للقيادات وكوادر الدولة تدفع باتجاه تقليد الرئيس حين يرتدي زيّه المدني أو العسكري واستخدام مفرداته في الخطابات.. كل ذلك لإشاعة التماثل المظهري مع الرمز الواحد...

مكتبة الفكر الجديد

وسواء في قطريته أو قوميته بقي القائد حتى عشية الحرب على الكويت كائناً أرضياً يستمدّ ميزاته من تجسيد مصالح ناسه العراقيين أو العرب وعبر حزب قطري وقومي هو البعث. وكلّما اصطدمت مشروعيّة الحكم الراهنة بتحدّيات حتى من داخل الحزب والجيش، وكلّما تباعدت المسافة بين المثال وأفعاله وبين الصورة المفترضة والواقع، انفصل الرمز الحاضر ليستمد مشروعيته من الماضي وتقدّم التصوّر المثالي على الشعبوي المجسّد. وهنا تفترض العقيدة التوحيدية أنّ الجمهور موحّد روحياً، رغم تناقض مستويات حياته وأجياله وقطاعاته. ويتمّ التوحيد على أسس طقسيّة دينيّة يكون فيها مركز وحدة الناس رمز سام يستمدّ شرعيته من قوة أعلى منهم كأفراد أو مجتمعين.. ولذلك يستبعد التصّور الواقعي ويقدّم القائد هذه المرّة كأسطورة منفصلة عن الناس وأعلى منهم ومن حاجاتهم الفردية اليوميّة. وقد حصلت عند عودتي إلى بغداد على ٦ صفحات تعود لرئيس مجلس الأمناء في بيت الحكمة هي بمثابة دليل عمل لمن سيكتب ويُخرِج مسلسلاً تلفزيونياً عن حياة صدّام حسين تحت عنوان "ما هو الهدف من الفيلم – المسلسل" وتبدأ بتقديم صدّام حسين بطل يتكوّن بعمق إيمانه وبإرادته، وبقدرته. ما هي ملامح هذه البطولة؟ إن بطولة صدّام حسين ليست من صنع بيئته، أو من صنع الفرصة أو القوّة.إن هذه البطولة ذات رسالة تاريخية، إنها من صنع إيمانه. إنّ إيمانه يكمن في تفهّم عميق للتاريخ وتفتح على المعاصرة. إنه يسعى لتحويل هذا الفهم إلى إرادة وحقيقة واقعة. التوجيهات مكتوبة بخط اليد ومملاة على كاتبها في صيغة أجوبة على أسئلة.

من السهل المزج بين هذه التصوّرات من خلال الوصف المكتوب

مكتبة الفكر الجديد

للبطل النموذجي، لأن الكلمة المتولّهة الشعريَّة تستطيع أن تتملّص من معادلتها الواقعية وتبقي المديح منفصلاً عن صورة الممدوح الواقعية. ولكن تجسيد هذا البطل بالصورة، وبصورته هو، وفي الفيلم التلفزيوني يحتاج إلى عمل معقّد.. وتجري عملية الإخراج ضمن حلقة ضيّقة من الحماية الشخصية للقائد.. فقبل زيارة أيّ مدرسة أو بيت أو مؤسسة أو منطقة تذهب عناصر من الحماية لاستطلاع المنطقة وتطويقها أمنياً.. ومع الحماية مصوّرون خاصون لا يرتبطون بأجهزة الإعلام، إنّما بالمكتب الصحفي للقائد. مع الجهاز الأمني الذي يطوّق المنطقة مسبقاً سيهيّئ المصوّرون مكان الحدث بطريقة إخراجية ليبدو كل شيء عفويّاً ومفاجئاً، بل وسيختارون من المواطنين العاديّين الممثّلين الثانويّين الذين سيلتقيهم البطل. وعلى الممثّل بعد ذلك أن ينفصل عن ذاته الحقيقية ويدخل الدور ليرى نفسه بعين مشاهديه، وفي الحقيقة تصوّره عن مشاهديه. وهنا تتداخل شخصيّات كاتب النص والمخرج والممثّل والبطل الحقيقي بحيث يصعب فرز التمثيل عن الحقيقة.

مكتبة الفكر الجديد

وعمليّاً لا تُمَثِّل الحقيقة المفترضة بكاملها كما في مسرح يتواجه فيه الجمهور والممثّل معاً وجهاً لوجه، فالضرورات الأمنية تحيط تحرّكات الرئيس بسرّية مطبقة وتمنع اقتراب الجمهور من القائد الى مسافة محسوبة بمدى الطلقة.. ولذلك تصعب رؤية وجهه الحقيقي. ولا يبقى مجال للمشاهدة غير الشاشة ومن خلال الفيلم المصوّر الذي يتيح إعادة تصنيع أخرى للحقيقة. وبعد ترتيب المشاهد الحيّة تجري عملية التقطيع الفيلمي بإشرافه المباشر أو مستشاره الإعلامي ليحذف كلّ ما يخلّ بتلقائية الحدث وهيبة البطل الشعبوي.

الصورة والسلطة

لكم تتطابق الصورة عند هذا الرجل مع القوة؟ تنتشر الصور وتتوزّع طرديّاً مع أجهزة الأمن. كلّما زادت المخاطر يختفي الرجل الحقيقي والشعبوي ويصبح حبيس قصره، يتحوّل القصر إلى نصب رمزي، ولا يراه الناس حين يغادر القصر، بل يرون موكبه الخاطف كلمحة خيال، وربما يرون خياله، أو خيال شبيهه من وراء زجاج السيارة المضبّب. يصبح وجود الرجل الحقيقي افتراضياً، تجسّده في الواقع هذه الجداريات الضخمة والتماثيل الضخمة في مداخل الشوارع وفي الساحات، انتشار الصور والتماثيل يعني رمزيّاً تمدّد سلطته.. الجمهور المدقع الأعزل وحده لا يستطيع أن يسقط طغاته. الانقلابيون يفعلون ذلك مستثمرين الجزع، ويكتفي الجمهور بإسقاط الصور والتماثيل. طاغيتنا الأخير بنى سلطته بالصور التي انتشرت في كلّ الأماكن وفي كلّ الأشياء (الشوارع والساحات العامة، مداخل المدن والمؤسّسات، في كل الغرف الرسمّية، على أغلفة الكتب المدرسيّة ودفاتر الكتابة، على ساعات اليد، صحون الطعام، أقلام الكتابة، العملات المعدنية والورقيّة.. باختصار أراد أن يغرز صورته في لاوعي المواطن كما المسمار.

مكتبة الفكر الجديد

سقوط الصنم

كان صدّام أوّل من استقبلني حين دخلت الحدود يوم ٢٦-٤-٢٠٠٣ بعد ٢٤ عاماً من المنفى. في داخلي حدثت رجفة كأنّي استعدت مرة واحدة كل كوابيسي في المنفى عن دخول البلد تحت ستار من الظلمة وفي غفلة عنه وعن شرطته. غالباً ما كنت أخاف من لمسة ضوء ستكشفني في وضع التسلّل إلى وطني وبيتي. عند الدخول الأوّل من مركز الرويشد رأيت في الفجر الباكر صدّام حسين بعقاله وكوفيته. يبتسم لي مرحّباً رغم الرصاصات التي أصابت فمه وعينه. فكّرت بمن أطلق الرصاص على الصورة، كأنّه أطلقه على تاريخ من خوفه الشخصي. وتذكّرت أنه حينما مزّق المنتفضون في نهاية حرب ١٩٩١ صوره وجدارياته كانوا يعنوه هو بالذات من خلال الرموز الدالّة عليه، وبدوره أراد أن يتحايل على الزمن الذي خذله فاستبدل الصور بتماثيل من الكونكريت والحديد لكي يثبت رمزه بوجه الزمن.

أصكّ أسناني وأشدّ كل عضلة في جسدي لأعاون هذا الرجل العاري الصدر الذي يضرب بمطرقته الضخمة قاعدة التمثال كي يسقط الطاغية من عرش الكونكريت. الجمهور حوله يشدّ الحبال، وبعضهم تسلقّ التمثال ليضرب الرأس، ومع ذلك بقي التمثال واقفاً يحيّي الحشد غير دارٍ بالذين

مكتبة الفكر الجديد

يحفرون أساسه. في الحياة هو كذلك تماماً. تأكل الحروب البلد، تتحطّم قوّاته وينهار اقتصاده ويرتهن البلد بكامله وتبحث فرق التفتيش حتى في غرف نومه ... مع ذلك يقف هو شامخاً متشبّثاً بـ(روح النصر)، رافعاً يده يحيّي الحشد تحت المنصّة وهو يهتف له بذلك العصاب الذي يشبه الشماتة (بالروح، بالدم، نفديك يا صدّام)! هكذا كان دائماً، يرى ما يريد أن يراه ويسمع من حواريّيه ما يريد أن يسمع وقد علّمهم في مدرسة الخوف أن لا يقولوا غير ذلك.

صرخنا مرّة واحدة نحن المتجمّعين حول التلفزيون حين مال الصنم قليلاً. انكسر الكوع النابت في المنصة، مال الجسد نحو أرض الواقع تحته.. لقد سرق هذا الرجل، ورقاً كان أم حديداً، نصف حياتي وأجمل آمالي. أكثر من ألف وثمانمائة صفحة فولسكاب صرفتها عليه طوال ربع قرن من منفاي..صرت أعرفه من كثرة ما فكّرت فيه. ودائماً كان يأتيني في الأحلام معاتباً أومهدداً أو يقرأ أوراقي بصمت. أكثر ما أتعبني وأنا أكتب روايتي (الخائف والمخيف) هو أن أنحّي الكراهية وأنا أكتب عنه. أردت أن أرى فرح الطفل فيه وهو يراقب صورته في التلفزيون، ثم حزنه الى حدّ البكاء وهو يطلق النار على أقرب الناس إليه، قرفه من التملق الذي يستمرئه، كما أردت أن أصل إلى لحظة حقيقيّة تسبق قراره بإبادة قرية مع أهلها.

كنت أتابعه من خلال الصورة، في الصحف والتلفزيون.لا أكتفي بالتفرّج على الصورة، إنّما أحاول أن أدخل ما وراءها مدركاً خداع الصورة وما تخفيه، وبالتحديد حين يكون موضوعها رجل مثله امتهن الكاميرا ممثلاً ومخرجاً، وعشقها حتى آخر لحظة من حياته. الكاميرا بالنسبة له أداة تزيح الواقعة الحقيقية بواقعة مفترضة وممثّلة.

مكتبة الفكر الجديد

خلال عملي كمخرج تلفزيوني كنت أمعّن طويلاً في المادة التلفزيونية عنه.. أبطيء اللقطات وأجمّدها محاولاً الوصول للتفاصيل الخفيّة في الصورة: مشيته المتمايلة وهو يدخل قاعة الاجتماع ويدور حول الوزراء، أتابع الحركات الجامدة القلقة لأتباعه والطريقة التي تنفرج بها أساريرهم حين يلطّف جوّ الاجتماع بنكته،أراقبهم وأعجب لتماثل حركاتهم مثل جوقة تجسّد تقاليد الولاء الأبدية. أحسب الفراغ بين موقع صدام حسين في الصدارة وأقرب نوّابه إليه فأجد الفراغ المحسوب يتّسع لخمس كراس غائبة وأخمّن أنها للمراتب الخمسة الأولى (رئيس مجلس قيادة الثورة، أمين سر القيادة القطرية، رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلّحة).. كلّها من حصة (القائد). بعدها تأتي كراسي نوابه الذين يأخذون قوّتهم ممّا يمنحه لهم.

تابعته وهو يصعد منصّة الخطابة.. يرفع يده بالتحيّة ونظرته لا تتّجه للجمهور كأفراد، إنما كأفق.. ودائماً أتساءل وأنا "أُمَنتِجْ" الصور، هل هو نفسه أم أحد أشباهه، وهل هي الصورة ذاتها ما أراه، أم أنّني أرى فرضيتي فيها؟

كان هذا الرجل يسكننا ونحن نشهد صعوده من موقع الرجل الثاني إلى موقع الرجل الأوّل. نتحدّث عنه بهمس مرتجف ونحن تحت وطأة حكمه. وحين أفلتنا منه وهاجرنا إلى بيروت كأوّل منفى لنا أردنا أن نتحرّر منه بالكتابة عنه. لاحقنا أزلامه إلى بيروت متابعين خطواتنا وأصابعهم على كواتم الصوت. كثيرون حذّروني من الكتابة عنه لأن (يده طويلة) ولأن أهلي سيدفعون الثمن في بغداد، لكنّني لم أستطع التوقّف، فبيني وبينه ثأر شخصي ومرض. كنت أكتب لأشفى منه وأنا أعرف أو أفترض أدقّ أسراره.

مكتبة الفكر الجديد

خيل لي إنّه هو أيضاً فكّر بي وأنا أكتب عنه. في الحلم رأيته يقلّب أوراقي ويهزّ رأسه بين الحيرة والسخط (كيف عرفني هذا اللئيم؟).

يميل الآن من على منصّته.. دبّابة أمريكيّة عاونت الحشد بسحب التمثال فانخلعت الساقان عن القدمين النابتتَيْن في المنصّة ومال الجسد حتى هوى وهو يحيّي الأرض تحته. كنت أمدّ الحشد بكلّ قوتي المعنوية وهو يكسر أساس الصنم. في النهاية سقط الحديد وانهال الحشد على التمثال بذلك العصاب الذي تقف خلفه ثارات ٣٥ عاماً من الظلم والدم. ومعه قفزنا كلّنا من مقاعدنا ونحن نقبّل بعضنا: سقط!!!

كما رأيته في كوابيسي استقبلني صدّام حين دخلت حدود العراق بعد ٢٤ عاماً من المنفى. الصورة أكبر من كلّ ما حولها وهي أكثر حضوراً من بقيّة المشاهد كأنّها تقول لي أنا بالذات "ما ستراه بعد الآن لا يدلّ إلا عليّ أنا وحدي"! تحت جدارية المنتصر الباسم جندي أمريكي بِعدّته الكاملة! كيف وصل إلى هذا المكان؟. جاء مسرعاً ليمنعنا من التصوير. عندما قلت له إنهم يصوّروني قال مهدّداً سأتلف الشريط إذا صورتم أيّ من جنودنا. جندي آخر اقترب منّا وقال بالعربية (مرحبا!) ثم سألني عما إذا كنت شخصاً مهمّاً. قلت له: أهميتي تكمن في أني عائد لبلدي.

قال لي بثقة صاحب البيت ومالكه:

WELCOME HOME –

كلّ شئ هنا يفوق الخيال ويصيبني بالدوار والبلادة. صدّام فوقي يبتسم لي رافعا يده إلى النصف يحيّيني، والجندي الأمريكي يتفحّص أوراقي وأنا أدخل بلدي بجواز أجنبي. لا شيء حقيقي ولا شئ منطقي!

مكتبة الفكر الجديد

أعيد النظر إلى الصورة المكبّرة فوق رأسي وتأخذني رجفة حضوره الراسخ. لقد سقط لكنّه لم يسقط من وعي أجيال عاشت تحته.. في الشوارع والساحات كنت أرى حيث ما ذهبت المنصّات الإسمنتية التي كانت تحمل صورته أو ما زالت تحملها وقد شوّه الوجة بسكّين أو نار. مع ذلك ما زالت تدلّ على سلطته. وحتى عندما حلّت محلّها صورة قائد جديد كان معارضاً له، ففي وعي الناس ما زالت الصورة الغائبة تدلّ عليه أو على عدواه وقد انتقلت إلى ضحاياه. لقد رسم أسطورته في ثقافة جيل يتحدّث عنه بمزيج من الخوف والإعجاب.

إبن أخي ياسر واحد من جيل كامل فتح عينيه على وجود صدام الكلّي. يعرف ياسر إنّ صدّام أعدم خالته، وبسببه عاش والده نصف عمره في الجبهات وهاجر عمّه وعمّته من البلد، ومع ذلك لا يخفي إعجابه بصدّام. يحفظ خطاباته ويقلّد صوته وحركته حين يقول (أطرهم طر...) كنت أنوي أن أعمل فيلماً وثائقياً عن شبّان وُلدوا وكبروا تحت هذه الجداريات لأسألهم عمّا يمثّله لهم وما تبقّى منه فيهم. وقد التقيت ٢٠ من هذا الجيل في بيت مهندس ذو ماض يساري. ابنته رتّبت اللقاء:

– كان أبونا وزعيمنا وبطلنا والوحيد الذي يخيفنا.

هكذا قال لي واحد من جيل ياسر.

أردت أن أختبر معارف الجيل الذي ولد ونشأ بحضور صدّام الكلّي. سألتهم عن ثورة تموز ١٩٥٨ وعبد الكريم قاسم فأجابني صبيح عماد (١٧سنة):

– نعم سمعت بثورة تموز، أليست هي التي قام بها صدّام حسين.

مكتبة الفكر الجديد

– لا، قام بها عبد الكريم قاسم.

– الذي حاول صدّام اغتياله؟

– نعم! لكنّه فشل...

– وصارت ردّة تشرين التي اعتقل فيها صدّام ثم هرب من السجن...

تاريخ البلد قبل وبعد صدّام صار يدور حوله. هو بالنسبة لهذا الجيل محور التاريخ وصانع أحداثه الكبرى، ولا يعرفون قائداً غيره.

حين قرَّرَت حكومة ما بعد ٢٠٠٣ إزالة صوره من كتب الدراسة تردَّدَت ابنة أختي طويلاً قبل أن تنفّذ قرار وزارة التعليم في أوّل يوم من العام الدراسي الجديد. ثم بدأت بتمزيق الصورة وهي مغمضة العينين وتبكي.

وفي بيت أختي إلهام أسمع هذا الحوار بينها وبين خادمتها في مدخل الحديقة الأمامي:

– ما له السيّد الرئيس حتى يتكلّمون عنه بهذا السوء؟ ألم يوزّع علينا البطاقة التموينية!؟

– ليست هذه من ماله الخاص، أنت ابنة بلد نفطي غني...

– مع ذلك كان يوزّع الحليب بنفسه على أطفال المدارس.

– أنظري إلى نفسك. زوجك تعوّق في الحرب، وأخوك خدم في كلّ الحروب كما تقولين أنت، ومع ذلك أنت منظّفة في بيوت الآخرين وليس لك بيت، وابنتك منظّفة مثلك بدلاً من أن تذهب للمدرسة.

مكتبة الفكر الجديد

– صحيح، لو عرف السيد الرئيس بحالنا لما قَبِل، لكن مَنْ حوله يُخفون عنه الحقيقة.

وأرفع رأسي قليلاً عن مذكّرات الجواهري، وأنا منغمر بشمس شتائية تدخل حتى عظامي، موشكاً على التدخّل في النقاش. أحضّر الجملة البسيطة الموحية التي سأدخل بها عقل أو قلب هذه المرأة (أنظري إلى يديك...)، لكنّني أتذكّر بأنّ الزمن وحده كفيل بمسح هذا النفاق، وسيأتي يوم تدرك فيه هذه المرأة وغيرها الثمن الذي دفعوه من كبريائهم، وربما يخجلون، ومن هذا الخجل يبدأ الإنسان الحقيقي.

في النهاية خفّ دفاع المرأة واكتفت بتجهيل نفسها:

– ما الذي عرّفني به، أنا لم أره و لم يدخل بيتنا ليفتح الثلّاجة، وحتى لو دخل لن يجد ثلّاجة، و لم يصلِنا منه فلس واحد، لكن الكلّ يمدحونه ويرفعونه للسماء، بما في ذلك الفاهمون الذين يقرأون الكتب مثل الأستاذ (تشير إليّ) وكتّاب الجرائد.

داخل القصر

عبر الجسر وفي الطريق المؤدّي إلى القصر الجمهوري وفوق جزيرة بين شارعين جلس على كرسيّ مذهّب له مسند عال ينتهي بتاج مجنون يرتدي بدلة سموكنغ فضفاضة على جسد نحيل ونظّارة سوداء تعطي وجهه مزيج من الغموض والهيبة، ممسك بسيجار على طريقة صدّام ويحيّي المارّة مثله تماماً كأنّه يردّد جملة صدّام الثابتة "سلموا لنا على الغايبين".

مكتبة الفكر الجديد

مع الصحفيّة المصريّة منى عبد العظيم أنيس ذهبنا لمشاهدة قصر صدّام وكلانا شبه يائس من موافقة الأمريكان .

– يا سبحان مغيّر الأحوال!

يردّد السائق الذي أخذنا إلى مدخل القصر. قال إن عمره الآن ٣٥ عاماً وهو بغدادي أبّاً عن جَدّ، ومع ذلك لم يرَ حتى الشارع المؤدّي للقصر. يرتجف بمجرّد الاقتراب من بداية الشارع لأن عيون الحرس تخزّ جسده كالابر.

كلمّا اقتربنا يزداد ارتباكاً:

– أأنتم متأكّدون من أنّكم ستدخلون؟

تحجّجنا بموعد صحفي نعرف أنّه تأجّل، للدخول إلى البوابة، وبعد أخذ وردّ وافق حارس البوابة الأمريكي على دخولنا شرط أن نعطيه تلفون الثريا ليتحدّث مع حبيبته. وافقنا على الشرط ففسح لنا الطريق وأرسل جنديّاً آخر برفقتنا.

كنّا نتجوّل في قاعة الاستقبال بدهشة مدوخة. لا نصدّق أنّ قصر صدّام تحوّل مقرا للقيادة العسكرية الأمريكية. الضباط الأمريكان يتنقّلون داخل القاعة وفي الممّرات ببدلاتهم المبقّعة، يطرقون الأرض المرمرية ببساطيرهم بقوّة (نحن هنا!) لا يشعرون بحرج وجودهم هنا. فالعالم بات قريتهم. وبينهم كنا، نحن أهل الدار، تائهين.

الضابط الأمريكي المعني بالإعلام قال:

مكتبة الفكر الجديد

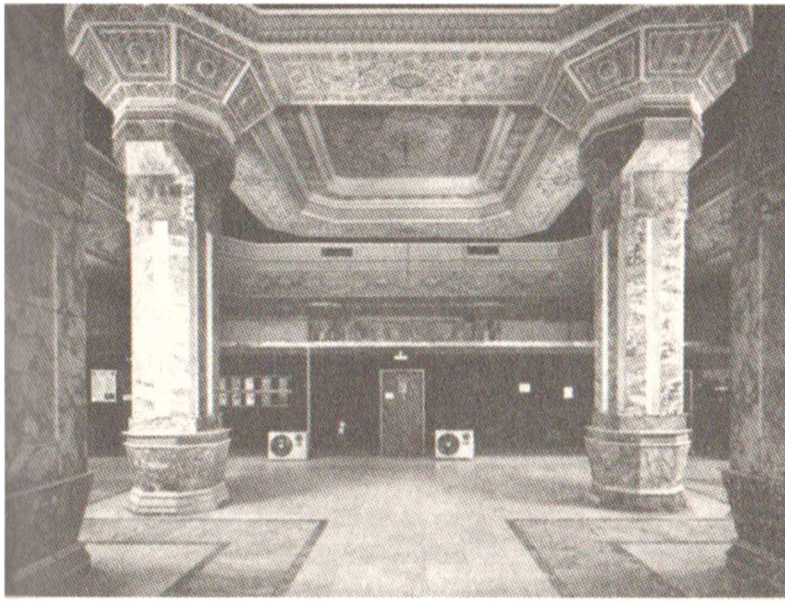

– حتى نحن ما نزال لا نصدق حقيقة أنّنا هنا.

كنت أدور متفحّصاً الأثاث الذي لايحمل ذرّة ذوق ولا أيّ انسجام، مزيج من ولع الطغاة بالفخامة الشكليّة والذوق السوقي للطبقة الريفية التي اجتاحت المدينة وتولّعت بالأشياء معزولة عن محيطها، لمجرّد كونها فخمة ومذهّبة. لكلّ الكراسي مساند خلفية ذات زخرفة ملتوية ومتصاعدة تنتهي بتيجان أعلى بكثير من رؤوس الجالسين. قبضات الكراسي اللولبية تحيل يد الجالس إلى التوتر بدلاً من الاستقرار لأنّها تنتهي بمقبض ملتفّ على ذاته يجسّد يد الجالس الممسك بقبضة السلطة. هناك في الوسط مقعد مختلف عمّا حوله، وبينه وبين المقاعد الأخرى مسافة.. هذا هو مقعد القائد.. هنا التقى رؤساء دول وقادة سياسيّين من أوروبا وأفريقيا وآسيا. تذكّرت جلسته المسترخية وقد مدّ ساقيه على امتدادهما وفرد ذراعيه شاغلاً أوسع مسافة ممكنة لسلطته حاشراً ضيوفه في المساحة الضيّقة، تذكّرت طريقته في النظر

مكتبة الفكر الجديد

في عين الآخر ليجبره على الإطراق وهو يستمع أكثر مما يتكلّم. الكاميرا حاضرة دائماً في مخيلته وقد رافقته حتى لحظات ما قبل الموت، ثمّة دور عليه أن يدخل فيه ممثّلاً لسلطة مطلقة حتى ولو كانت موهومة.

في نفس هذه القاعة طاولة طعام فكتورية الطراز تخرج من جوانبها أسود فاتحةً أشداقها تريد أن تفترس الجالسين حولها. ولع الحكّام بالأسود يمنحهم مزيداً من الإحساس بقوّة سلطتهم، فالأسد يجسّد الفخامة والقوة، وهما الصِّفتان اللّتان تجمعهما كلمة صدّام الشهيرة (الاقتدار). كان الأسد رمزاً للسلطة البابلية، وعند الأشوريين صارت السلطة مزيجاً من الأسد والثور برأس إنسان، كائن يريد أن يجمع القوة والرشاقة والحكمة. في الريازة الإسلامية تستند أعمدة القصور، خاصة في الأندلس، على رؤوس الأسود.

في دمشق زرت رئيساً عربيّاً منفيّاً، عجبت لكثرة الأسود المحنّطة في بيته. أسود نائمة ورؤوسها مرفوعة بحذر، أسود واقفة بتأهّب، على جوانب الأبواب أسود متأهّبة للهجوم دفاعاً عن أشبالها. كنت أتحدّث معه بينما زئير الأسود الصامت يملأ الفضاء حولي. عندما تنبّه لانبهاري قال لي مفاخراً، إنّ جمعها خلال زياراته المتكرّرة لأفريقيا، وهي من الأشياء القليلة التي حملها معه إلى منفاه. الأسود تعطيه وهم استمرار سلطته في هذه القاعة التي تتصدّرها صورته بين سيفين.

كان للأسود الحقيقيّة موقعاً مفضّلاً في حدائق قصر صدام. واحد من الحرّاس روى في ما بعد مأزقه معها عندما قصفت الطائرات الأمريكيّة القصر وجرح واحد من هذه الأسود. كان الحارس في موقع المواجهة حين تقدّم الجنود الأمريكان والأسد يزأر خلفه من وجع جرحه. قد ينقض عليه في أيّ لحظة. مع ذلك لم يستطع إطلاق النار على الأسد خوفاً من عقاب

مكتبة الفكر الجديد

قائد أحبّ أسوده أكثر مما أحبّ جنوده. ولع القائد نقل عدواه للإبن الكبير الذي كان يتجوّل مع نمره في النوادي والحفلات مطمئناً الخائفين بأنّ النمر لا يفترس إلّا بأمر منه، وفي الحقيقة كان يستمتع بالخوف الذي يشيعه أينما ذهب، كونه ابن أسد ومدرِّب نمر.

في مدخل القاعة، وربّما في غرفة الاستعلامات، حيث قبض الشعراء الذين مدحوا القائد مكافآتهم قبل الخروج، صفَّت مجموعة مرايا مؤطرة بالذهب. في هذه المرايا التي كانت متقابلة رأى صدّام نفسه يتكّرر مراراً وتتناسل ذاته حتى النهاية ، جمعت هذه المرايا ليستخدمها حلّاق اسمه خليل. يجلس الضباط الأمريكان على كرسي كان يجلس عليه القائد ليحلق لهم خليل ويأخذ لهم المصوِّر صورة على كرسي القائد ووسط مراياه التي غاب عنها دون أن يترك من كل انعكاساته خيالاً له.

مكتبة الفكر الجديد

خرجنا من قاعة الاستقبال إلى المركز الرمزي للقصر الذي يراه الناس من بعيد: قبّة دائرية تتوسّط أربع تماثيل لصدام نفسه، ولكن بلباس رأس مختلف:عمامة قائد عسكري، ربما خالد ابن الوليد، وهو أيضاً من تكريت، خوذة جندي عراقي يتوسّطها رأس رمح، عقال عربي، وبدون غطاء رأس.. الرؤوس الأربعة مكبّرة عشر مرات على الأقل عن الحجم الحقيقي.. لكنّها متقابلة يظهر فيها صدّام وقد أعطى قفاه لكل ما حوله.. لا النهر يهمّه، ولا الحدائق الغنّاء حوله، ولا حتى الحرّاس الذين انتشروا في كّل أرجاء القصر، لا يهمّه كلّ ذلك، إنما ينظر إلى نفسه.. هو مرآة نفسه، وعلى الناظرين أن يراقبوا أوجهه الأربعة ويشهقوا من إحساسهم برهبة الرجل الممسك بالقبّة الدائرية.

كل ما يمتّ لصدام موجود هنا: تماثيله، كراسيه، مراياه. تشدّد حضوره الغائب، لكن هو نفسه لم يعد موجوداً. لقد اختفى في مكان ما، وما لم يلقَ القبض عليه أو يموت فسيبقى شبحه يطوف المدينة، بما يحمله من مباغتات. لا يشعر الناس بالاستقرار ما زال موجوداً.

– سيعود بالتأكيد، وقد عرف الآن محبّيه من أعدائه، هذا عفريت احترف الخروج من هزائمه.

ياسر كان يقودني في زحمة السير وأمامنا شاحنة ببابين. في لحظة مباغتة قدح خياله:

– ما رأيك لو فُتح هذا الباب وأطلّ صدّام وحيّانا وأغلق الباب!

مكتبة الفكر الجديد

في كلّ يوم أسمع إشاعة بأنّه مرّ من هنا مرتدياً العقال، وقف عند بائع الرمان لحظات وشرب كأساً وقال للبائع:

– احتفظ بصورتي هذه، سأعود عمّا قريب!

هناك من أقسم أنّه رآه في جامع النداء الذي أشرف بنفسه على بنائه في أوّل التسعينات، يصلّي الفجر بلحية طويلة وقلب خاشع واختفى مثل فص الملح.

ذات يوم جاء أحد الحراس في الصليب الأحمر لمرؤسيه مقسماً أن سيارة إسعاف توقّفت عند باب البيت بعد أن تردّدت مرّتين على الشارع، ثم نزل صدّام وقد لفّ رأسه بكوفية. أراد أن ينام في البيت ليلة واحدة، لكنّه قرّر خلال لحظة، وإحساساً بالخطر أن يكتفي بقدح الماء وقال للحارس وهو يعيد لفّ كوفيته:

– قل لمرؤسيك إنّك رأيتني كما أنا الآن وإنني لست خائفاً وأتجوّل في مدينتي كرئيس.

الحارس روى القصة بأنفاس مبهورة كأنه رأى ملك الموت واعداً بالقيامة.

بين فترة وأخرى يطوّق الأمريكان منطقة مرّ بها، أو بيتاً كان فيه وغادره قبل لحظات، أو جامعاً صلّى فيه على عجل.

لقد أدمن هذا الرجل الخطر والتنقّل بين الأوكار خلال العمل السرّي مرتاباً من الحياة العادية خارج الوكر وينتابه الشك بكل رجل خارج شلّة الرفاق الضيقة.

مكتبة الفكر الجديد

حتى عندما حكم البلد كان يتنقّل بين عشرات القصور المعلنة والخفيّة، مباغتاً أقرب الناس إليه حين يترك قصره لمكان آخر، وإلى غرفة أخرى لأنّه لا يثق حتى بحمايته.

خلال الحروب والقصف الجوّي كان صدّام يدخل بيوت المواطنين فجأة ليقضي ليلة أوحتى ساعات. ها هوالآن يمارس التنقّل مفاجئاً الناس تاركاً لهم في الصباح الباكر ثمن المبيت سخيّاً.

لقد عاش في هروب دائم وترك هروبه على حياة بلد بأكمله، بلد في حالة إنذار وطوارئ مستمرّة، وناسه أيضاً في حالة هجرة دائمة، هاربون من المكان إلى المكان، هاربون من أنفسهم إلى ذات أخرى حيثما انتقلوا، ولديهم دائماً ذات أخرى غير ذاتهم الأصلية، تماماً كقائدهم الحائر بنفسه، مرّة يتلبّس الفلاح وعقاله، ومرّة الجندي في الخندق أو القائد في غرفة العمليّات ومرة التكنوقراطي مدخّن السيجار.

حين تكاثر الزعماء والسياسيّون ضاع الجيل الذي تعوّد على قائد كاريزما واحد ورأى الزعماء الجدد الذين يتملّقون حبّ الناس الضعفاء.

– نحن لا نَصْلُح للديمقراطية، نريد قائداً مرهوباً يخيف الناس ويعلّمهم بالغصب على النظام.

الحريّة بدت متعبة لجيل كامل تعوّد أن ينتظر الأوامر لكي يتصرّف. حين واجه هذا الجيل نفسه وإرادته خاف من حرّيته. يعرف صدام هذا الخوف والاستسلام، فهو الذي صنعه وهندسه داخل وعي الناس بالخوف والرشوة. حتى الذين كرهوه تردّدوا في إعلان كرههم وهو ما زال حيّاً. يعرف صدّام هذا الخوف العميق من الحرية الوليدة، لذلك يَعد بالعودة

مكتبة الفكر الجديد

لتخليص رعاياه من فوضى الحريّة. الناس تابعوا هروبه الدائم ولديهم كاليقين بين الخوف منه والغربة فيه:

– قد يدخل هذا البيت في أيّ لحظة مع حرّاسه كما عوّدنا في الحروب السابقة.

كان هذا هاجس ابن صديقي الكاتب.

ذات ظهيرة حارّة اشتعلت بغداد بالرصاص. بجانبي في البيت كان شاب من قرية قريبة من تكريت، بعثيّ سابق. سألته وصوت الرصاص يقترب منا:

– هل توجد مباراة لكرة القدم؟

فالرصاص كما علّمتنا التجارب اليوميّة لا يدلّ على اشتباك في منطقة محدّدة، إنما هو منتشر في كلّ المدينة "ثمّة خبر هام"

لم تكن هناك مباراة الكرة القدم فاز بها الفريق العراقي، لذلك قلت:

– إذاً ألقي القبض على صدّام؟

شحب لونه:

– مستحيل!

– لِمَ؟

– ما من ساحر أجاد الاختفاء مثله. سيقتل نفسه قبل أنْ يمسكوه.

مكتبة الفكر الجديد

بسبب انقطاع الكهرباء لم نستطع التأكّد من الخبر. فتحنا المولّد والتلفزيون فرأينا منصّة المؤتمرات الصحفية خالية، ثم ظهر بريمر ومعه عدنان الباجه جي، وقبل أن يصل المايكرفون قال:

We Got Him -

ظهر صدّام بلحيته الكثّة وشعره المنفوش، ناسياً الكاميرا للمرّة الوحيدة في حياته، والجندي الأمريكي يفتّش شعره وفمه.. آنذاك هرب البعثي السابق من المشهد وقال وقد خبط المنضدة بيده:

– لِـمَ لَـمْ تُقاتل حتى الموت مثل أولادك وحفيدك ؟

لقد خذله بطله وانكسر المثال في داخله.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

نصوص عن طاغية
السلطة إلى النهاية!

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

متوحّد وواحد، رغم كثرة الحاشية والمريدين.. يعرف الخديعة ولكنّه يستمرئ ابتسامات التملّق وكلمات المديح لأنّها تُسمعه صوت ذاته.. والحشد المصفوف تحت منصّته يغريه ويطريه، ولكنّه يزيد وحشته. ولأنّه لا يرى غير ذاته ستبدو له هذه الحشود ظِلالاً باهتة، ومع ذلك يريدها لأنّه يخاف وطأة الوحدة.

يدري أنّه لن يملك الحبّ ولن يحصل عليه، فيستعيض عنه بالخوف الذي يوحد الناس تحته. لقد جلبوا إليه، من دوائرهم ومدارسهم ومصانعهم، حشوداً كالقطعان، لا رغبة منهم، يعرف ذلك، يعرف الخديعة كاملة، لكنه يعبد الجمهور ويمسحه بعينيه من اليمين إلى الشمال، ومن أبعد واحد على عمود الكهرباء، حتى أقرب واحد في الصفوف الأماميّة، قبل أن يقول أول كلماته فتدوّي الهتافات والتصفيق. يعرف أنّ هذا الجمهور سينقلب ضدّه حين يتحرك الغوغاء. لكنه يستمرىء اللحظة الراهنة كأنها الأبد.

لا يريد إرادة أخرى غير إرادته، ولذلك يتحتّم عليه أن يصرع النيّة قبل أنْ تستحيل فعلاً، وما من وسيلة لذلك غير إشاعة الخوف لإبقاء الناس تحت وطأة ذنب دائمة حتى وإنْ لم يفعلوا شيئاً.. يدري تماماً كثرة ضحاياه،ولكنّه لا يستطيع إلا أنْ يوقّع أحكاماً جديدة، فقد أصبح القتل حرفة الحكم اليوميّة

مكتبة الفكر الجديد

التي لا عصبيّة فيها.. قد يباغته ضميره في لحظة صفاء نادرة، ولكنّه سينحّي ضميره ويوقّع قائمة جديدة.. فما دام قد قبض على جمرة السلطة في بلد يناكده، فلا مجال إذاً للتراجع حتى نهاية الشوط.

في الحرب، صَلْبٌ هو كقطعة ماس.. يطلّ على ساحة المعركة لا يرفّ له جفن.. إنه يرى المجد دائماً فوق أنهارِ الدماء وأكداس الجثث. وأمام الأهداف الكبيرة ليست هذه المآسي إلا تفاصيل في خارطة كبيرة. إنها الوسيلة الأكثر جدوى للخلاص من المطالب الصغيرة (الخبز، المدارس، العمل، حرية الأحزاب...) بتحويل الوطن إلى ثكنة وناسه إلى سريّة عسكرية طيّعة على استعداد لتنفيذ الأوامر، وهي ضروريّة له كقائد لأنها الميدان الذي لا بدّ منه لاختبار إرادته في أن تتحوّل أقصر الأوامر إلى أكثر الأفعال عنفاً وشمولاً..

ممثّل هو، يعرض قدراته ويراها ويصفّق لنفسه، غارقاً في وهم يصنعه بلا توقّف، ويريد الآخرين رجعاً له أو ديكوراً للعمل الذي يؤدّيه دائماً: أنْ يكون هو الذي يريده، وعلى الآخرين أن يمنحوه هذا الوهم بإخلاص حتى حدود التوهّم.

وهو حاكم بهذا الوهم ومحكوم به، لن يسمع إلّا ما يريد أنْ يسمعه، ولن يرى إلّا ما يريد أنْ يراه. ولذلك لن يرى غير نفسه، فتغيب عنه الحياة تماماً في غرف المرايا التي تعكسه وتحجب عنه العالم..

مكتبة الفكر الجديد

هذا هو الدكتاتور الذي تقدّمه هذه النصوص المختارة من الأدب العالمي:

سيرة طاغية

كيف يبدأ نصير الشعب في التحوّل إلى طاغية؟ ألا يكون ذلك حين يبدأ نصير الشعب في السلوك على النحو الذي ترويه أسطورة معبد زوس اللوقي في أركاديا؟

وما الذي تقوله هذه الأسطورة؟

إنها تقول أنّ المرء إذا ما ذاق قطعة من لحم إنسان ، ممتزجة بلحم قرابين مقدّسة أخرى ، فإنّه يتحوّل حتماً إلى ذئب ، ألم تسمع بهذه القصة أبداً؟

بلى!

وبالمثل فإنّ زعيم الشعب عندما يجد نفسه سيّداً مطاعاً، لا يجد غضاضة في سفك دماء أهله. فهو يسوقهم للمحاكمة بتهم باطلة – وهي طريقة مألوفة لدى هذه الفئة من الناس– ويقتلهم ظلماً وعدواناً، ويذوق بلسان وفم دنسين دماء أهله، ويشرّدهم ويقتلهم ويصدر وعوداً زائفة عن الديون، ويعيد توزيع الأرض. عندئذ ألا يكون من المحتّم، بل من ضرورات القدر، أن ينتهي الأمر بمثل هذا الرجل، إمّا إلى الهلاك على أيدي أعدائه، وإما أن يصبح طاغية ويتحوّل إلى ذئب؟

مكتبة الفكر الجديد

فاستطردْتُ قائلاً: فلنتأمّلْ الآن سعادة الرجل والدولة التي يظهر فيها إنسان من هذا النوع!

فقال: أجل، لنفعل ذلك!

فقلت: أليس صحيحاً أنهّ في الأيام الأولى، وفي مبدأ الامر، لا يلقي كلّ من يصادفه إلا الابتسام والتحية، ويستنكر كلّ طغيان، ويجزل الوعود للخاصة والعامة، ويعفي من الديون ويوزّع الأرض على الشعب ومؤيّديه، ويتصنّع الطيبة والودّ مع الجميع؟

هذا ضروري.

ولكن عندما يتمّ له التخلّص من أعدائه الخارجيّين، وقهر البعض الآخر، وعندما يأمن هذا الجانب ، فإنّه لا يكفّ عن إشعال حرب تلو أخرى حتى يشعر الشعب بحاجته إلى قائد.

هذا معقول.

وكذلك حتى يضطر المواطنون الذين أفقدَتْهم الضرائب إلى الانشغال بكسب رزقهم اليومي بدلاً من أن يتآمروا عليه.

هذا واضح.

وفضلاً عن ذلك، فإنه إذا ما شكّ في أنّ لبعض الناس حرية التفكير ما يجعلهم يأبون الخضوع لسيطرته، فإنّه يجد في الحرب ذريعة للقضاء عليهم، بأن يضعهم تحت رحمة الأعداء، لهذه الأسباب كلّها، كان الطاغية دائماً مضطراً إلى إشعال نيران الحرب.

مكتبة الفكر الجديد

هذا ضروري.

غير أنّ هذا المسلك لن يكسبه إلا كراهية متزايدة من مواطنيه.

هذه نتيجة ضرورية.

ولا بدّ أن يوجد بين أولئك الذين أعانوه على تولّي الحكم، والذين أصبحوا من ذَوي السلطان والنفوذ، فئة من الشجعان الذين يعبّرون عن آرائهم بصراحة، أمامه وفيما بينهم، وينتقدون ما يقوم به من تصرّفات.

هذا جائز.

فلا بدّ أن يقضي الطاغية على كل هؤلاء إن شاء أن يظلّ صاحب السلطان، بحيث لا يترك في النهاية شخصاً ذا قيمة بين أصدقائه وبين أعدائه.

هذا واضح.

فاستطردت قائلاً: وهكذا يجد صاحبنا هذا نفسه أمام إحدى خصلتين، كلتاهما أمرّ من الأخرى: فإما أن يعيش بين أناس معظمهم محتقرون، وهم في الوقت نفسه يكرهونه، وإمّا أن لا يعيش على الإطلاق.

مكتبة الفكر الجديد

صقر الصحراء

أنا أفهم فان كورين جيّداً. إنّه شخصية صلبة ، قويّة ، طاغية. هل سمعت؟ إنه دائماً يتحدّث عن البعث.

وليست هذه كلمات فارغة. إنّه بحاجة إلى صحراء ، إلى ليلٍ مقمر. ومن حوله ينام في الخيام، وفي العراء، رجاله الجوعى والمرضى الذين عذّبتهم المسيرات الطويلة.. القوازق والأدلّة والحمّالون، والطبيب، والقسّيس وهو وحده الذي لا ينام. ومثل الرحّالة البريطاني ستانلي يجلس على كرسي سفري ويشعر بأنّه ملك الصحراء وسيّد هؤلاء الناس.. ويسير ، يسير إلى جهة ما، ورجاله يئنّون ويتساقطون الواحد تلوالآخر، بينما هو يمضي في سيره وفي النهاية هو يلاقي حتفه أيضاً، ولكنّه يبقى برغم ذلك طاغية وملك صحراء، لأنَّ الصليب على قبره يبدو مرئياً للقوافل من على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً.. مهيمناً على الصحراء. إنّه لمؤسف أن لا يكون هذا الشخص عسكريّاً فمن الممكن أن يصبح قائداً ممتازاً عبقرياً. بوسعه أن يغرق خيوله في النهر ويصنع من الجثث جسوراً وهذه الجسارة في الحرب أهم من أيّ تحصينات وتكتيكات.. إنه يعيش في هذه المدينة العفنة للصيف الثاني، لأنّه من الأفضل أن تكون الأوّل في قرية على أن تكون الثاني في مدينة. فهو هنا ملك وصقر، إنّه يُطْبِقُ على جميع السكان بقبضة حديدية وينيخ عليهم

مكتبة الفكر الجديد

بهيبته لقد أجبر الجميع على الخضوع له. وهو يتدخّل في شؤون الآخرين وكلّ شيء يهمّه والجميع يخشونه، أمّا أنا فأنزلق تحت مخْلبه وهو يشعر بذلك ويمقتني. ألم يقل لك أنّه يجب القضاء عليّ وإرسالي إلى أعمال السخرة؟ ومثله العليا أيضاً طغيانية، فالبسطاء العاديون عندما يعملون لخير الجماعة فإنّه يقصد بذلك أقرباءهم، أنا ، أنت، أيّ إنسان باختصار، ولكن بالنسبة لفان كورين فالناس كلاب، أشياء تافهة أتفه من أن يكونوا غاية في حياته، إنّه يعمل وسيذهب في بعثة وسيدق هناك عنقه لا باسم الأقرباء، بل باسم مفاهيم مجرّدة، كالإنسانية والأجيال القادمة وسلالة البشرية المثالية. لقد كان الطغاة دائماً ذوي أوهام.

أنطوان تشيخوف: المبارزة

مكتبة الفكر الجديد

نابليــون

في ١٣ حزيران حُمِل إلى نابليون جواد عربيّ أصيل، فاعتلى على صهوته ومضى عدوا إلى أحد جسور النيمين وقد أصمَّته الهتافات الحماسيّة التي لعلّه لم يكن يحتملها إلا لأنّه كان من المتعذّر منع هؤلاء الرجال من التعبير بهذه الصرخات عن الحبّ الذي يكنّونه له، لكن هذه الهتافات التي تراقفه أينما ذهب كانت عِبئاً عليه لأنها تصرفه عن المشاغل العسكريّة التي استحوذت عليه منذ التحق بالجيش.. وتفقّد نابليون النهر وترجّل وجلس على جذع شجرة بجنب الماء. أشار إشارة فحُمِل إليه منظار مقرّب وأسنده إلى ظهر غلام بادر إلى ذلك وقد غمرته السعادة. تفحّص الجهة الأخرى من النهر وقال شيئاً من دون أن يرفع رأسه.. لقد أمر بالبحث عن معبر لعبور النهر إلى الضفّة الأخرى. وسأل أحد الفرسان، وهو شيخ حسن المظهر، محمَّر الوجه، كان يتلعثم من الانفعال، سأل المرافق إذا كان يسمح له ولفرسانه عبور النهر سباحةً على مرأى من الإمبراطور، وهو ظاهر الخوف من الرفض، كمثل صبيّ يطلب الإذن بامتطاء صهوة جواد. فأجاب المرافق إنّ الإمبراطور لن يستاء، من دون شك من هذه الحمية المفرطة. وما أنْ قال ذلك حتى هتف الضابط المشورب القديم، وهو يستلّ سيفه وقد بدا عليه الفرح وبرقت عيناه: عاش الإمبراطور! ثم أمر الفرسان أن يتبعوه وهمز حصانه وانطلق إلى النهر عدواً. وعند حافة النهر حثّ جواده الذي أبدى شيئاً من الحران، واندفع إلى الماء متّجهاً نحو وسط النهر حيث كان التيار

مكتبة الفكر الجديد

سريعاً. فلحق به مئات الفرسان عدواً. وفي منتصف ذلك التيار السريع استولى البرد والخوف عليهم. وأخذ بعضهم يتشبّث ببعض وهم يتهاوون عن خيولهم. فغرقت بعض الجياد كما كان بعض الرجال يغرقون أيضاً، وكان آخرون يسعون جهدهم لبلوغ الضفّة الأخرى. ومع أنّ المعبر كان على نصف فرسخ منهم إلّا أنّهم كانوا مزهوين بأنْ يسبحوا وأن يغرقوا تحت بصر الرجل الجالس على جذع الشجرة والذي لم يكن يتطلّع إلى ما كانوا يفعلون. وعندما عاد المرافق وانتهز الفرصة ليلفت نظر الإمبراطور إلى إخلاص البولونيّين لشخصه، نهض الرجل القصير ذو المعطف الرمادي ودعا "بيريتيه" وراح يتمشّى معه إلى جانب الماء مُصدِراً أوامره ومُلقياً نظرة ممتعضة على أولئك الفرسان الذين كانوا يغرقون فيصرفونه عن اهتمامه.

ليون تولستوي: الحرب والسلم

مكتبة الفكر الجديد

لا تراجع!

كاليجولا: (أمام المرآة) كنت قرَّرت أنْ تكون منطقيّاً أيهّا الأبله، ولكنَّ المشكلة تكمن في معرفة إلى أي حدٍّ سيستمر ذلك (ساخراً). إذا جلبوا لك القمر فسيتغيَّر وجه الأشياء مرّة واحدة. لِـمَ لا يا كاليجولا! مَنْ يدري؟ (ينظر حوله) الناس من حولي يقلّ عددهم باطّراد، هذا أمرٌ غريب! (الى المرآة وبصوت مكتوم) عدد الأموات تجاوز الحدّ، هذا يجرِّد الدنيا من الناس، وحتى لو جلبوا القمر، فلن تستطيع الرجوع إلى الوراء، وحتى لوتحرّكَ الموتى من جديد تحت مداعبة الشمس، فإنَّ جرائم قتل البشر لن تنتهي في الأرض بسبب ذلك. (بغضب) المنطق يا كاليجولا، لا بدّ من متابعة المنطق: السلطة إلى النهاية. لا، لا رجوع إلى الوراء، لا بدّ من الاستمرار حتى النهاية!

البير كامو: كاليجولا

مكتبة الفكر الجديد

الخوف أوّلاً!

كولومبوس: الخوف يا عزيزي هو الفضيلة الكبرى.. إذا أَحَلْتَ مواطنيك إلى عبيد خائفين ستجبرهم على اعتبارك منبع الفضائل. وكلّ ما تفعله فضيلة.. تصوَّر هؤلاء الذين ينتقدوني، ويعتقدون الحقّ ملكهم! تصوّر لو كانت لديهم مخالب، سيفعلون بالضبط ما أفعله. حفنة من القوّة خير من كيس من الحقّ. وعلى من يريد أن يحكم أن يطلق شريعته إلى أقصى مدى، وينبغي أن يمتلك الذكاء والشجاعة ليواصل بوتائر أشد. أنا متأكّد من أنَّ كلَّ من ينتقد ذلك، يرجع إلى أنّه لا يستطيع وليست له القدرة لأن يفعل الشيء نفسه. الدولة تقوم على قوة حاكمها وليست على نيّة رعاياها.

يوجين أونيل: الينبوع

مكتبة الفكر الجديد

أنا فقط!

الملك: بدوني سيضحكون، سيهرّجون، سيرقصون على قبري كأني لم أعش أبداً. آه، فلتذكروني. عليكم بالبكاء. عليكم بالحزن والقنوط. لتبق ذاكرتي خالدة في كتب التاريخ، وليعرف الناس جميعاً حياتي عن ظهر قلب. وليحياها الجميع مرّة أخرى. وعلى المدارس والعلماء أنْ لا يتناولوا بالبحث والدراسة شيئاً سواي ومملكتي وأمجادي، ولتُحرَق سائر الكتب الأخرى. ولتحطَّم كلّ التماثيل، وليوضع تمثالي في جميع الميادين ولتعلّق صورتي، أنا، في جميع الوزارات، وفي مكاتب سائر أقسام الشرطة ومراقبي الضرائب والمستشفيات، وليطلق إسمي على كلّ الطائرات والبواخر والعربات والسيّارات. ولتُسدَل ستائر النسيان على جميع الملوك الآخرين والمحاربين والشعراء والمغنّين والفلاسفة، ولا يبقى أحدٌ غيري في وجدان الناس جميعاً. إسم عماد واحد ولقب واحد للناس جميعاً، وليعلمْ الصِبية القراءة في تهجئة إسمي: بـيـرااالجـيـيـه. لتُطبع صورتي مكان صور القدّيسين في جميع الكنائس وعلى ملايين الصلبان. وليُقِمْ القداس من أجلي، ولأكوننّ أنا خبز الذبيحة (البرشان) ولِتُضأنَ جميع النوافذ بلون عيني ولتتخذني شكلَها ولتُرسمن الأنهار في السهول جانبيّة وجهي، وليظلّ الناس يناشدوني إلى أبد الآبدين ويتوسّلون ويتضرّعون إليّ.

يوجين يونسكو: الملك يموت

مكتبة الفكر الجديد

أشباح الملوك

ريتشارد: لنجلس على الأرض ونقصّ مآسي موت الملوك، وكيف أُطيحَ ببعضهم وقُتِل الآخر في الحروب. وكيف ظهر لبعضهم أشباح الملوك الذين عزلوهم. وكيف سَمّمت نساؤهم بعضهم وقتل بعضهم وهم نائمون.. وهكذا أحاق الهلاك بهم جميعاً.. ففي التاج المجوَّف الذي يحيط بفودَيْ الملوك الغائبين يقتل زبانية الموت الساخرين من مقامهم والمتجهِّمين لأبّهتهم. وقد أذنوا لهم ببرهة من الوقت ومسرح صغير يملون عليه دورهم الملكي الذي تخشى سطوته ويملأ نفسه بالغرور الباطل الزائد حتى يحسب جثمانه من النحاس المحصّن. ويُثقب ثقباً مثل رأس الدبوس فينتهي أجله.. فغطوا رؤوسهم ولا تهزأوا مما هو لحم ودم باحترامكم وتبجيلكم. وكُفّوا عن هذا الخشوع المتكلّف لأنكم أخطأتم فهمي طوال هذه المدة ،لأني آكل وأجوع مثلكم، وأشعر مثلكم بالحزن وأحتاج للأصدقاء... فإذا كان هذا شأني ويحصل لي ما يحصل لكم فكيف تقولون إني ملك؟

شكسبير: رتشارد الثاني

مكتبة الفكر الجديد

الحياة كملهاة

وبونابرت هذا الذي يجعل من نفسه رئيساً لحثالة البروليتاليا والذي يرى فيها وحدها انعكاساً جماعيّاً لمصالحه الشخصيّة، والذي يرى في هذا الزبّد والسقط والقمامة من جميع الطبقات الطبقة الوحيدة التي يستطيع أن يستند إليها من دون قيد أو شرط، هو بونابرت الحقيقي sans phrase من دون زينة.. إنّه وهو الفاسق الماكر القديم، ينظر للحياة التاريخية للشعوب نظرته إلى ملهاة بأكثر المعاني ابتذالاً وإلى مسخرة، لا تقصد الملابس الفخمة والكلمات والمواقف فيها إلا أنْ تخفي أحقر النذالات، فهكذا في غزوة "ستراسبوك" أدّى عقاب سويسري مدرَّب دور النسر النابليوني. وأثناء الغارة التي شنّها على "بولون" ألبس بعض اللندنيّين البزّات العسكريّة الفرنسيّة. إنّهم كانوا يمثّلون الجيش. وفي جميعة العاشر من كانون الأول حشد عشرة آلاف من الأوغاد عليهم أنْ يؤدّوا دور الشعب. وفي اللحظة التي كانت فيها البورجوازيّة نفسها تؤدّي فيها دور الملهاة بأتمّ صورها، ولكن بأكثر المظاهر جدّيّة، من دون أن تخرق أيّ شرط من الشروط المتحذلقة لأصول فنّ الدراما في فرنسا، وكانت هي نفسها ما بين منخدعة ومقتنعة بمهابة المسرحيّة التي تقوم بها، كان لا بدّ للمغامر، وهو الذي عدّ الملهاة مجرّد ملهاة، أن ينتصر وهو لم يعد بعد فريسة لفكرته الخاصّة عن العالم، وهو المهرّج الجاد الذي لم يعد يعتبر التاريخ ملهاة، بل الملهاة هي التي يقوم بها تاريخ العالم، عندما

مكتبة الفكر الجديد

قضى على خصمه الوقور، عندما صار يأخذ بنفسه الآن دوره الإمبراطوري بصورة جدّية، ويتصوّر وهو تحت القناع النابليوني أنّه نابليون الحقيقي.

كارل ماركس: الثامن عشر من برومير

مكتبة الفكر الجديد

المنصّة والجمهور

– الشعب يطلب ظهورك في الشرفة يا سيّدي الرئيس!

– .. الشعب؟

وضع القائد نبرة استفهام في هذه الكلمة وساد الصمت من حوله. ونهض من مقعده وتوجّه نحوالشرفة تحت ضغط حزن عميق كتمه بنفسه بغضب، هذا ما شعر به، لئلا يظهر في عينيه.

وظهر أمام الجماهير محاطاً بكوكبة من محبوبيه، وكانت بعض النسوة قد جئن ليهنّئنه بالذكرى السعيدة لنجاته من محاولة الإغتيال، وبدأت واحدة منهن، أُوكِلَتْ إليها مهمّة إلقاء الخطبة، تقول حالما رأت الرئيس:

... با ابن الشعب (البار)!

وازدرد القائد لعابه المريض، ربمّا وهو يذكر أيام كان طالباً، حين كان يعيش في فقر مدقع مع أمّه في مدينة لم يجد فيها أيّ متنفّس لهما. ولكن المحبوب تدخّل قائلاً في رنّةٍ خفيفة:

– مثل يسوع ابن الشعب...

مكتبة الفكر الجديد

وردّ السيّد الرئيس ببضع كلمات ويده اليمنى تقبض سور الشرفة المرمر والتفت جانباً حتى لا يعرّض صدره للخطر، وحرّك رأسه من اليسار إلى اليمين ليحيط بالجمهور، وقد قطّب جبينه، وعيناه تثقبان كل شيء، ومسح الرجال والنساء على حدٍّ سواء دمعات تساقطت من عيونهم.

وقال ذو الوجه الملائكي حين رأى الرئيس وقد انسدّ أنفه بعض الشيء:

– ألا تفضلت بالدخول يا سيّدي الرئيس؟ إنّ الجمهور... يؤثّر عليكم تأثيراً شديداً!

واندفع المدّعي العسكري العام نحو الرئيس الذي عاد من الشرفة تتبعه ثلة من أصدقائه، كيما يقدّم إليه تقريراً عن هروب الجنرال كاناليس ويهنّئه على خطبته قبل أيّ شخص آخر، ولكنّه مثل جميع الذين تقدّموا إلى السيّد الرئيس لنفس الغرض، توقّف فجأة وقد شلّه شعور غريب بالوجل، ناتج عن قوّة خفيّة خارقة، وحتّى لا يبقى ممدود اليد في الهواء، تقدّم ليصافح ذو الوجه الملائكي. غير أنّ المحبوب أدار له ظهره. وسمع المدّعي العام العسكري، ويده ممدودة في الهواء، أوّل انفجار في سلسلة انفجارات توالت في ثوان، كأنما هي طلقات مدفعية. وعلى الفور انطلقت الصرخات وتقافز الناس يجرون هنا وهناك ويركلون المقاعد في طريقهم، بينما أُغمِي على الكثير من النساء، وسرعان ما كانت فِرق الجنود تنتشر وسط الجمهور كحبّات الأرز، وأيديهم على زناد بنادقهم، المحشوّة، وسط المدافع الرشاشة والمرايا المحطّمة والضباط والمدافع.. وعلى الأرض تحت سلّم صغير، كان يرقد الطبّال الأوّل في الفرقة الموسيقيّة العسكريّة الذي سقط مع طبلته من على السلالم ممّا سبّب كلّ ذلك الفزع والهلع!

ميغل أنخل استورياس: السيّد الرئيس

مكتبة الفكر الجديد

سجين وهمه

... ولقد حاول تعويض هذا القدر الدنيء، بالعبادة المتفانية للآفة الوحيدة التي اسمها السلطة، ولقد جعل من نفسه ضحيّة لبدعته حتى يضحّي بنفسه في نيران هذه المحرقة اللامتناهية ولقد أتخم نفسه بالخداع وبالجريمة، ونما بين أحضان القسوة والخزيّ والعار وتجاوز وجله المحموم وخوفه الورائي، لا لشيء إلّا لكي يحافظ حتى النهاية على كرته الزجاجيّة في قبضته من دون أن يعلم بأن في ذلك آفة لا نهاية لها، ومن إشباعها يتولّد جوعها، حتى نهاية الأزمنة سيدي الجنرال، ولقد عرف منذ أصوله الأولى بأنّهم كانوا يخدعونه طلباً لـمَرْضاته، وبأنّه كان يدفع كي يُخدَع، وبأنّهم كانوا يحشدون بقوّة السلاح تلك الحشود التي كانت تجمع لدى مروره مع صرخات الفرح ولافتاتها المهتمّة به، الحياة الأبدية للعظيم الأقدم من عمره، غير أنّه كان تعلّم العيش مع كل مصائب المجد تلك خلال اكتشافه مع مرّ السنين، لأنّ الكذب هو أنسب من الشكّ وأنفع من الحب، وتوصّل بذلك للتوهّم المخزي في الحب والقيادة من دون أنْ تكون له سلطة، وفي أن يكون ممجّداً بدون مجد ومطاعاً بدون نفوذ عندها اقتنع وهو في ذلك النثار من أوراق خريفه الصفراء بأنّه لن يكون أبداً سيد سلطته الكاملة، وأنّه محكوم بأن لا يرى الحياة إلّا من قفاها.. حصده عكاز الموت بضربة فورية فأنطلق محلّقاً في الجلبة المدلهمّة، جلبة آخر أوراق خريفه الصقيعية، باتجاه

مكتبة الفكر الجديد

مملكة الظلام، مملكة النسيان الحقيقي، متشبّثاً بجلباب الموت الرثّ، غريباً عن هتافات الحشود المهتاجة التي كانت تهرع إلى الشوارع جذلى، منشدة موته بأناشيد الحبور، غريباً إلى الأبد عن موسيقى معزوفات التحرّر، عن أسهم الفرح النارية، وعن أجراس البهجة، التي زفّت للملأ البشرى لأنّ زمن الأبدية الهائل قد انتهى أخيراً.

غابرييل ماركيز: خريف البطريرك

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الفهرس

ذكرى الحاضر ______ ٥
حسني مبارك: جمود الزمن ______ ١١
القذّافي: ملك الملوك ______ ٢٧
علي صالح والإخوة الأعداء ______ ٣٩
بين الأسدين، الأب رجل النكسة والانقلابات ______ ٥٣
صدّام حسين: المخرج والصورة ______ ٨١
نصوص عن طاغية السلطة إلى النهاية ______ ١٢١

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

متوحد وواحد رغم كثرة الحاشية والمريدين، يعرف الخديعة ولكنه يستمرئ ابتسامات التملّق وكلمات المديح لأنّها تُسمعه صوت ذاته، والحشد المصفوف تحت منصّته يغريه ويطريه ولكنّه يزيد وحشته. ولأنّه لا يرى غير ذاته ستبدو له هذه الحشود ظلالاً باهتة، ومع ذلك يريدها لأنه يخاف وطأة الوحدة.

يدري أنّه لن يملك الحب ولن يحصل عليه، فيستعيض عنه بالخوف الذي يوحّد الناس تحته. لقد جلبوا إليه، من دوائرهم ومدارسهم ومصانعهم، حشوداً كالقطعان، لا رغبة منهم، يعرف ذلك، يعرف الخديعة كاملة، لكنه يعبد الجمهور ويمسحه بعينيه من اليمين إلى الشمال، ومن أبعد واحد على عمود الكهرباء، حتى أقرب واحد في الصفوف الأمامية، قبل أن يقول أول كلماته فتدوي الهتافات والتصفيق. يعرف أن هذا الجمهور سينقلب ضده حين يتحرك الغوغاء. لكنه يستمرئ اللحظة الراهنة كأنها الأبد.

لا يريد إرادة أخرى غير إرادته، ولذلك يتحتّم عليه أن يصرع النيّة قبل أن تستحيل فعلاً، وما من وسيلة لذلك غير إشاعة الخوف لإبقاء الناس تحت وطأة ذنب دائمة حتى وإن لم يفعلوا شيئاً. يدري تماماً كثرة ضحاياه، ولكنّه لا يستطيع إلّا أن يوقع أحكاماً جديدة فقد اصبح القتل حرفة الحكم اليومية التي لا عصبية فيها. قد يباغته ضميره في لحظة صفاء نادرة، ولكنّه سينحي ضميره ويوقّع قائمة جديدة. فما دام قد قبض على جمرة السلطة في يده يناكده فلا مجال إذاً للتراجع حتى نهاية الشوط.

ISBN 978-284306185-1
9 782843 061851

مكتبة الفكر الجديد
@Intellectualrevolution @NoorAlberssi_Library